أحاديث حول الحب

بنت عروس الصعيد

أميرة موسى

إسم الـــــكتـاب :أحاديث حول الحب

إسم الكـــــاتـــب : أميرة موسى

تصميم الغـــــلاف : عبدالله عباس

تدقيق لـــــغـــوي :فاطمة هاشم

رقـــــم إيـــــداع :

تـــرقيم دولـــــي :

شارك سطورك مع العالم

أحاديث حول الحب

بنت عروس الصعيد

أميرة موسى

The Writer Operation

شارك سطورك مع العالم

الحب ليس هو فقط ذلك المنظور الذي ينظر به العاشق لمعشوقه فهذا بعض الحب لا كل الحب؛ هناك حب العبد لله وهو أسمى مراتب الحب درجة، وحب الله للعبد وهو أعظم ما يحصله العبد، وبعده يأتي حب الرسل والصحب الكرام وكل صاحب رسالة وكل مصلح نافع للإسلام والمسلمين، وحب الدين، حب الوطن، حب الذات، حب الأهل، حب الصديق، حب الحياة، حب الخير، حب الفضيلة، حب الطبيعة، وحب الإنسانية و الناس جميعاً.

عزيزي القارئ قبل أن تقرأ:-

لا تنسَ أنه عمل بشري؛ إنسان ناقص يسعى للكمال فلا تتصيد لي الأخطاء فكلنا نخطئ ونحب أن نصيب ورغم هذا لك رؤيتك التي لا تتعارض مع رؤيتي وفكرك الذي لا يتنافى مع فكري، ولا تنسَ أنه بقربك أو ربما في الجانب الآخر من العالم أحد يحبك حبًا يفوق ظنك ويتمنى أن تحيط بك السعادة قدر إحاطة العنوان بكتابي هذا، ومن المؤكد أن كلاهما أنا.

أتمنى لك قراءة ممتعة تورثك فكراً قويماً وعقلاً رشيداً، وقلباً محباً رحيماً.

إهداء

إلى وردتي التي ما حان لي أن انتشي شذاها بعد، إلى صغيرتي التي أمهد لها عرش قلبي منذ أن كان وليد حبها حتى تعتليه ملكة متوجة بتاج الحياء والوقار رغم أن عيني ما قُرت برؤيتها بعد، إلى فتاتي الحسناء التي أنتقي لها من بؤس حياتي الذي تجرعته في صمت سمًا قاتلًا نشوةً ورضا يكفيها مؤنة المسير في دروب الحياة الظلماء التي لا تُضاء إلا بقربه -سبحانه- وأصنع لها من كل ما افتقدته كل ما قد يعز على قلبها أن يفتقده؛ فالمحرومون وحدهم هم أكثر الناس بقيمة ما حرموا معرفة وأكثرهم لما رنت إليه قلوبهم دون الوصول إليه عطاء.

أمك التي أحبتك وهي دون السادسة عشر من عمرها وكتبت لك وهي دون العشرين.

بنت عروس الصعيد

أميرة موسى

مقدمة

إنك يا صغيرتي لذاك القلبي الوردي الذي تملكينه كثيرًا ما تشغل قلبك المعاني الإنسانية من حب وعطف ورحمة وحنان ولطف وتحتل حيزًا كبيرًا منه فلا تدع للكره والقسوة ولا للجفاء فيه موضعًا.

وكثيرًا ما يشغل فكرك ماهيتها ومصيرها ونشأتها وسبل تنميتها، وسرعان ما تذهب نفسك حسرات على العلاقات الإنسانية كلها سواءً أكانت علاقة الأمومة أو الأبوة أو الأخوة أو الصداقة، كلها على حدٍ سواءٍ كانت تؤلمك بطريقة مميتة إن كانت هي في واقعها على نقيض ما كان ينبغي أن تكون عليه في حقيقتها وذاتها.

فلا زلت أذكر تلك الدموع الساخنات التي انسكبت من عينيك والتي تدل أكثر ما تدل على رقة قلبك ورهف إحساسك، وذلك حينما رأيت لهفة أم على صغيرها المريض الساكن قلبها البعيد عن مسكنها.

وكذلك حينما سالت دموع البهجة من حبات عينيك اللؤلؤتين والتي لا تتنافى مع كون الإنسان سعيدًا غير أنها طريقة عجيبة من طرق تعبيره عن فرحته، وذلك حينما كنا نتمشى في الصباح الباكر على شاطئ الإسكندرية حيث كان ذلك الأب يحتضن صغيره ويضمه إلى قلبه بشدة وكأنه يحجب عنه برد الشتاء بأن يغمسه في أحضانه ويغمره بعطفه وحنانه.

هكذا كنت مثلك تبكيني تلك التفاصيل الصغيرة وتؤلمني العلاقات الممزقة إلى أن تفتحت بصيرتي ونضجت وعرفت سبل التعزي عن ذلك

بأن نصلح ما بيننا وبين الله أولًا وبعدها كل شيء سيرممه الله بأيدينا شيئًا فشيئًا؛ فالأمور ما كانت لتأخذ بهذه الطريقة، وما كان لنا أن نثقل كواهلنا بما يشق عليها حمله فننهكها ونهلك أرواحنا، ونقتل قلوبنا حزنًا وكمدًا وما إلى الإصلاح سبيل، بل بالصبر والمجاهدة والمثابرة يكن كل ما ترنو إليه نفوسنا.

وكنت- يا صغيرتي- في كل لحظة تكبرين أمام عيني أرى نفسي متمثلة فيك وفي قلبك هذا الوردي وكنت مع حركاتك وسكناتك وعنفوانك وملامحك الهادئة وضحكاتك المبهجة تعيدين مشاهد طفولتي أمام عيني وكأنها كانت بالأمس القريب بل وكأني في عرض سينمائي لقصتي وذكرياتي، عرض أنا كل مؤديه وأحد مشاهديه.

ولأنك يا بنيتي ما زلت صغيرة ولم تطحنك الحياة في رحى خبراتها وتجاربها بعد، ولأنك كذلك تودين أن أقص عليك طبائع وحقائق ما ذكرت آنفًا سأسرد لك قصص الحب وسندور في أفلاكه ونتعرف على ماهيته وتهذيب الشريعة الإسلامية له.

وبين حب أعظم وأحاديث حول مساكن الحب وسير أهله وذوي الآلام والأشواك منه، سنروي أحاديثه سرد قلوب تعرف الله، وتحبه وتخشاه وتناجيه والناس نيام، قلوب تطمئن لقربها منه -سبحانه- وتلج في الظلمات في البعد عنه ما بين دمعة تائب وخفقة في محراب، قلوب تضطرب تحتاج وتشتاق وتتألم بحب أو لغياب حب كانت تتمنى أن يكون، قلوب توقف نبضها قبل أن يولي نحبها إثر خيباتها وخذلانها ووحشة الوحدة التي كانت تقاسي مرارتها، سنجالس أصحاب الهمم العالية وذوي النفوس الحكيمة ونرى نظرتهم للأمل والحياة ونصغي لأحاديثهم ونعاين بكل حب مجالسهم، ونحدد وجهتنا في الحياة ونعرف رسالتنا فيها، كل هذا وأكثر في

«أحاديث حول الحب».

اليد الساحرة للحب

للحب -يا صغيرتي- يد ساحرة خلاقة تمسح على قلوبنا مسكن الحب ومحل إقامته بلمسات سحرية من طراز فريد لا ننطق ببنت شفة في حضرة جماله ولا تسعفنا الكلمات إلا بما يكون من تنزيه العابد لربه حينما يرى آياته البينات المعجزات تتجلى أمام عينيه فيلهج لسانه بأجل ألفاظ العظمة والجمال وهو لفظ العزة والجلال «الله».

هكذا الحب يمس قلوبنا مس جنوني في أفعاله، ملائكي في جماله وفي ذاك الجمال الذي يضفيه على نظرتنا للحياة والأشياء من حولنا بعد الوقوع في شرك الحب، لمسة تجعل القلوب لا ترى إلا كما يرى الناظر من عدسة تليسكوب توجه أشعتها نحو محاسن المحبوب فحسب؛ فلا ترى من ناظريها إلا كل ما هو جميل ولا ترى إلا الكمال يتسامى بالمحبوب وسط النقص الذي يعتريه، بل ويصور لها موطن نقصه أعظم مواطن كماله في ذاته.

يداعب القلوب في رفق كما تداعب قطرات الندى أوراق الورد في مقتبل الصباح ترويها لطفًا من لطف مُنزلها -جل شأنه- وتمدها قوة من بعض قوى السماء التي تحملها في طياتها؛ فالحب يكسب القلوب قوة يواجه بها العاشق معارك الدنيا بأسرها لأجل محبوبه هذه القوة ذاتها تتبدل ضعفًا عند أول دمعة تزور أجفان محبوبه ما لم يكن منه سبيل لصرفها، وأكبر خسارات المحب يا -صغيرتي- إذا كانت لأجل محبوبه ما عادت في عينه خسارة بل كانت من أعظم مكاسبه.

والحب هو رادع الله في قلب كل عاشق ألا يخون نعمةً أنعمها الله عليه هي من أجل النعم وشعورًا إنسانيًا فريدًا هو أعظم ما يختلج الصدر، الحب هو النذر المقدس أن يسير المتحابان تحت ظل طاعته يوفي كل منهما بموعوده بأن يشد عضد محبوبه ما ارتخى أو لان من كثرة الصعاب التي تواجههما في الحياة الدنيا،

الحب هو أن يوقن المحب أن حياته لا تكتمل إلا بمحبوبه، وأن الجنة ينقصها جنة دونه.

فالحب يقتضي ملازمة القلوب جنبًا إلى جنب علاوة على أنه سكون قلب في قلب يؤنس وحشته ويشحذ همته ولا يسمح له بأن يمسه طائف من هم أو حزن؛ فهو الطمأنينة والسكينة وكل النشوة والسعادة ما دام لم يحد بالقلوب عن مراتب الشرف والفضيلة، وما دام يسير بها وفق تعاليم الشريعة التي تجعل المؤمن منا لا يقدم في قلبه على الله أحدًا، وما دام لم يكن هناك بين قلوب متحابين ما يحول بينها وما يحيل أشواقهم في البعد عذابًا وأشواكًا.

الحب الأعظم

وأجل مراتب الحب وأعظمها درجة هو حب العبد لربه حب لا يفتر ولا يعلو عليه عال إذ هو العلو والسمو ذاته، وهو ما دام معقودًا بحسن السمع والطاعة وإخلاص النية لله وحده -جل شأنه- فهو سبيل عزته في الدنيا ورفعته في الآخرة.

و عليك أن تعلمي -صغيرتي- أن كمال المحبة لدي المحب يقتضي مداومة الذكر ومكابدة الشوق وملازمة الركب وحسن السمع والطاعة في سبيل إرضاء من يحب؛ إذ أن المحب يأبى إلا أن يفعل ما يمليه عليه قلبه ويوحيه إليه جنانه؛ وكأنه بات رهين قلبه أسير حبه فما يعبأ إلا كيف يرضي حبيبه ويتودد إليه ويتقرب منه.

فيمضي نهاره ساعيًا راكضًا مهاجرًا في أرض الله وقد شرى نفسه ابتغاء مرضاته ورضوانه غير مكترث للدنيا وعرضها الزائل، فيبعها لله غير آسف عليها ولا نادم؛ فنظرة حب ورضا منه -سبحانه- خير عنده من الدنيا وما فيها.

يجاهد ماضيًا في طريقه يتحين لقاء حبيبه في الصلوات والخلوات ووقت السحر، فما ينام إلا قليلًا؛ إذ إن غاية مطلوبه أن يشبع حاجة روحه التي تتوق لخالقها، ونهاية مرغوبه أن يروي ظمأ قلبه الذي كاد يفجر الصدر من شدة الشوق، وما حاجة الجسد -يا عزيزتي- بعد تلبية حاجة الروح!!

فيقضي ليله مناجيًا باكيًا متضرعًا ذاكرًا شاكرًا حاله ليس كحال باقي البشر؛ فالناس في شأن وهو في شأن غير شأنهم، وما يلبث أن يُرى ذلك على ملامحه وفي حركاته وسكناته وغدواته وروحاته؛ وكأنه في عالم غير عالمنا، وكأنه يحلق بجناحي الرضا في عالم الروح ويسبح في ملكوت الحب.

يسير في الدنيا غريبًا، يأخذ منها ولا تأخذ منه، يسكن فيها ولا تسكن فيه، حاله ما بين الخوف والرجاء، يجاهد ليقيم بينه وبين المعاصي جدارًا من حديد

لا تخترقه وساوس الشيطان، ولا يذيبه طول المدة، ولا تنفذ إليه شهوات النفس وهفواتها.

تزكية النفس أبلغ ما ترنوا إليه نفسه، وإتيان المعصية أعظم ما يخشاه قلبه، فأشد ما يكره أن يضع نفسه موضعًا لا يحبه الله ويكره أن ينظر إليه فيه، وإن ذل فسرعان ما يعود، يرمم جداره، ويعزز عدته، ويشحذ همته؛ ليكمل مسيره نحو الله فيفوز برضاه، ويشق للجنان سبيلًا، وما أحسب هذه القوى الخلاقة في العبد غير قوى الحب.

خفقة في الحراب

روينا عن أصحاب الهمم العالية فيما يتعلق بحالهم وحال قلوبهم مع الله أنهم ولعظم قيام الليل في نفوسهم كانوا يمضون يومهم متخبطين لو أن أعينهم خانتهم وغدرت بهم نعاسًا، يجرّون أذيال الخيبة كالهائمين في بيداء الحزن لا يعرفون للسعادة طريقًا ولا يهتدون إليها سبيلًا لما ضيعوا على أنفسهم هذا اللقاء كحب غادرت عنه طائرة حبيبه دون أن يراه.

فالذي ذاق لذة القرب من الله إذا انتكس وحاد عن الطريق أو غفل عنه معلم من معالمه كان كما الطفل الصغير ضل طريق أهله فهام بين الناس ضائعًا وقد ضاقت به الطرقات وضعفت معه الحيل، وما إن وجده بكى من شدة فرحه بكاءً عظيمًا حتى ظن الجميع أنه كان خارج دارهم يعذب وفي الحقيقة أنه لا سعادة إلا في القرب منه -سبحانه-، والشقاء كل الشقاء في البعد عنه؛ فيا لذة العارفين ويا تعاسة الجاهلين!!

فلله در حالهم وحال قلوبهم!! وكأنهم بهذا اللقاء يسافرون إلى عالم الروح، يزيحون عن أنفسهم عناء الطريق، ويسمون بأرواحهم عن المادية الزائفة، وهم بذلك يقيمون حول قلوبهم جدارًا من السعادة والطمأنينة لا تخترقه نصب الحياة ولا تلينه همومها.

لكن ما أخذ بمجامع عقولنا وقلوبنا مشهدهم وهم رغم العناء الذي يقاسونه كي يصلوا لأجل طموحاتهم وأسمى أمنياتهم أنهم لم يكلوا ولا يملوا، وكيف أنهم وصلوا لما وصلوا إليه وكيف للطريق ألا يعوج بهم، بل وأنى لهم أن يثبتوا أشرعة سفنهم إذا هبت رياح الليالي العاتيات؟!

ربما حبهم للطريق ويقينهم بما سيكون لهم في ناهيته من رضا خالقهم وجنات نعيم، أو لحرصهم على أنفسهم أن يشقوا طريق الصعاب

لأجل أن يرتقوا بها في درجات السمو ومنازل الصديقين والشهداء والصالحين.

ربما كل هذا بجانب فضل الله عليهم ساهم في تحملهم عناء مجاهدة الوصول وحال بينهم وبين الركون إلى الدنيا بملذاتها الزائفة، وحتمًا سيسدد الله خطاهم وسيصلون ما دام قد صدقت نواياهم ومد شوقهم لربهم خطاهم، وكذلك نحن -يا صغيرتي- لن نذوق لذة ما ذاقوا إلا حينما نحب ونجاهد ونشتاق.

ونفس تجاهد لا تذوق للراحة طعمًا ولا ترضى إلا بالمشقة عملًا ولا تسعى إلا للرضا مطلبًا والجنة مسكنًا، تتعثر فالعزيمة تنهضها وتحيد فالله يسددها وتخطئ فالله يقومها، لا تكل ولا تمل؛ فجل راحتها عندما تطأ القدم الجنة وتستشعر الرضا المطلق وتنال المطلب.

وإياك يا عزيزي ثم إياك أن تظن أنه بإمكانك هزيمة عبد رباني، عبد كل حركاته وسكناته لله وبالله ومع الله، عبد الله أنيسه، وليه، ووكيله، حبه وحبيبه، القرآن جليسه يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، يبحر في معانيه إبحارًا، ويغرق في عذوبته عشقًا، صلاته ترياقه من كل سموم الحياة ومتاعبها.

عبد بوصلة قلبه دائمًا موجهةً للسماء، ويداه لا تخر عن أبوابها فتُسمع طرقاته وسط صخب النهار وتُرى دمعاته في ليلٍ بهيمٍ وقد هرع الناس إلى مضاجعِهم بعدما تخلوا عن أصدق معاني السعادة والراحة ورفسوها بشهوات أنفسهم وراحوا يفرون كالعبد الآبق يلجون في سباتٍ من ظلماتِ المعاصي لا تخترقه أنوار السماءِ، يبيت يدعو، يبكي، يناجي، ويحكي لمن عنده مفاتيح الغيب غيبه عن البشر، فتفتح له بقربه من الله مفاتيح سعادتي الدنيا والآخرة.

ولتعلمي أنه لا شيء يهزم عبدًا يعرف كيف يشق بصدق إيمانه طريقه نحو الله، يعرف كيف يهذب خواطره ويزكي نفسه وينقي قلبه، يضل

فسرعان ما تضيء له مصابيح السماء، يزل وسرعان ما يعاود النهوض، التوبة بعد الذنب لا تزده من الله إلا خجلًا وخضوعًا وحياءً، والطاعة بعد المعصية ما تزيدهُ إلا حبًا وسعادةً واطمئنانًا.

تعلمين ماذا .. إنه عبدٌ لن يهزمه شيءٌ في الوجود إلا تخلي الله عنه، وظنه بربه أنه عنه لن يتخلى، والله عند ظن عبده به، فما بالك بالعبد الرباني؟!

الأيتام

اجتمعتُ بالأمس -على غير العادة- بصديقي الكاتب الأستاذ "س" وبعد سلامٍ حارٍ أخذ كل منا يسأل ويطمئن على حال صاحبه وأهل بيته وكيف تعمل فينا الحياة عملها، وبعدها عمَّ الصمت لبضع دقائق وكأن جعبتنا التي لا تنضب حروفها قد نضبت من الكلام؛ فلم ننطق آنذاك ببنت شفة، فبدأته بالحديث قائلًا:- ماذا يحدث يا صديقي إذا ترك كل منا قلمه؟! كيف سيزفر كل منا أحزانه وأوجاعه، وأين يدفنها إن لم يكفنها بأوراقه، ويطيبها بحنوطٍ من حبر أقلامه، وكيف يحيها بين عامة الناس ويقتلها في نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؟!

فأطرق برهةً وكأنه يقلب مشهد دفن الكلمات التي سيدفنها كمدًا في صدره، وكيف سيتخلى عن ذاك المؤنس الكريم الذي يلاقيه كل ليلةٍ حينما تحل الوحدة جليسًا موحشًا، بل أنَّى له أن يستغني عن رفيقه ذاك الذي يرافقه جل لحظاته وأوقاته، ثم أمسك عن رسم المشهد أمام ناظريه وأفسح مجالًا يكفي جثث الكلمات المعطلات على لسانه محررًا إياه من السلاسل التي تكبله ليتحدث قائلًا:-

يا عزيزي بعدما أستثنيك وأمثالك لمَا لكم من اللغة بشتى دروبها وفنونها أوفر الحظ والنصيب، فنحن -كُتاب هذا العصر ادعاءً- لا نفقه عن اللغة شيئًا، غير أنه أتيحت لنا الكثير من التعاسة والقليل من الخبرة وأقلامًا وأوراقًا وحُرمنا أنسًا من الدنيا يكفينا حر الوحدة بوحشتها، أو ربما ليس لدينا شغل نشتغله أو عملًا نتلهى به إلا أن نبعثر مشاعرنا لا حروفًا وحسب على قطع من أوراق ليل بهيم.

والأدهى حال أولئك الصبية المرتزقة الذين فقدوا اللغة بجل دروبها يتعكزون كي يخرجوا الحروف من مخارجها الصحيحة إن هم أشفقوا على لغتهم وراحوا يكرمونها ببعض الحديث بها؛ فهم لا يعتزون بها حتى ولو يسيرًا، يسجلون أنفسهم على هواتفهم المشحونة بأحلامهم التعيسة "الكاتب فلان" بالإنجليزية

كذلك وهم في قمة السعادة والكبرياء، ولا أراهم إلا وهم في قمة التبجح؛ فإذا أردوا أن يحرروا أحزانهم ليقبروها بين حروف العربية استخدموا العربية، وإذا أردوا عن يعبروا عن إنجازاتهم والتي هي في حقيقتها خيبات استخدموا لغة غير تلك التي طبعوها بخيباتهم وأقبروها مع أحزانهم.

تبًا له من جيل! تركوا أعمال الدنيا بأسرها ليُخبئوا خيباتهم تحت مسمى "كاتب" يصف أكثر مما يكتب ويعبر عن ذاته أكثر مما يعبر عن أمته، حتى اعتزازًا بالعربية ما فعلوا، بل يعرِّبون الإنجليزية متهمين سيدة اللغات بالعقم والنقص وهم وحدهم الناقصون.

حسنًا -يا صديقي- صدقت وهذا ما كنت أود قوله غير أني ما كنت مستثنًا إلا من فترةٍ وجيزة؛ فلا أخفيك سرًا يا عزيزي نحن لسنا بكُتابٍ ولا أدباء نجعل من أقلامنا مباضع نخرج بها سموم أمتنا الضائعة، ونربت على جراحها بيدٍ حانيةٍ حتى تلتئم، ولا بمقيمين نقيم مدى استقامتها أو حيدها عن سبل النهضة والتقدم، ولا بموجهي شبابها إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ فنحن بُعداء كل البعد عن قضايا أمتنا، أقلامنا عاجزةٌ عن رسم الطريق لها، وكيف تفعل وهي عاجزةٌ عن رسم طريقٍ تشقه لنفسها؟! غير مدركين لما ينتابها ويهدد وحدتها التي باتت خائرةً مهشمة، باتت تنعي نفسها دون يقظتنا.

في الحقيقة -يا عزيزي- نحن مبتورو الصديق، مفتقدو الرفيق، نحن اليُتم ذاته حينما يتلهى أولوا الأمر عن صغارهم وذوي الحاجة إليهم بملذات زائفة، أو جهلٍ بدورهم غير مسبوق، نحن نستبدل المفقود من أبٍّ راعٍ ضيَّع الرعية، وأمٍّ جهلت دورها فراحت تفسد -دون دراية- أكثر مما تصلح، نستعيض عن الصديق بالقلم الرفيق،

نأخذ من ذاك القلم الأصم وتلك الأوراق الصامتة جرعاتٍ منومةً لنتناسى ذلك الواقع المرير؛ فنحن نستبدل كل أولئك من حاضر مفقود بذاك القلم الرفيق الموجود، وعليه نحن لسنا بكُتابٍ بل أيتام.

امرأة الفضيلة

وأصيبت صاحبتنا بلعنة الحب؛ فقد كلف قلبها به كلفًا شديدًا وليس لحبها كاشف إلا الله؛ فقد كانت طاهرة القلب، راسخة الإيمان بفضيلتها التي تأبى النزول عنها، وستقتلها تلك الفضيلة التي تلحقها وتلاحقها هي، فإذا هي غابت عن روحها أو ضعفت في قلبها ما رأت بعدها في روحها سموًا ولا في قلبها معنًا، لكنه من المؤكد أنها تتألم بها وبدونها؛ فهي وحدها مادة سموها، وهي بعينها نيران تعذيبها.

وقد كتبتْ إليه يومًا بحبر الأنين وألم الحنين تبثه أشواقها قائلة:-

سلامي إليك ..

يا من هفا بالحنين إليه فؤادي

ورجا بقربك دفءًا بعد عناقٍ

فقد ذاق في هجرك مرارة الأشواقِ

وتأوه من ألام خرجت عن الأطواقِ

أفما آن لك أن تطفئ نيران اشتياقي؟!

وبعد:- إليك يا معذبي في البعد، وحارقي بالشوق، إليك يا أنا أخط كتابًا ما أقمت حروفه؛ لشدة شوقي في ليلي، وتعثر قلمي في دمعي، وغرق حروفي في شجني، وضعف نظري في شخوص بصري.

إليك يا أنا أبث حديثَ عتبٍ معطرًا بعطر الحب عله يجتذبك في ثنايا لحنه وترانيمه كمحسن بديعي ينتشلك من عالمك فتسافر علي متن ألحانه لقلبي المعلول حيث أسكنتك، ولأنك لا تعرف شيئًا عن آلامي منك وأشواقي إليك،

فقط حدثني حديثًا كأشواقي إليك دائمًا وأبدًا لا يكف ولا ينتهي.

إليك يا أنا أرسل نيران أشواقي تلفح أوراقي كما تلفح قلبي حتى بات رمادًا يعبث به الهوى حيثما شاء وكيفما شاء؛ وكيف يصبرُ على الألم ذا الأشواق والصبر -رغمًا عنه- قد ملَّ منه؟! بل كيف يطفئ نيران أشواقه وتباريح الحب قد تمكنت منه؟!

ولتعلم يا أنا أني

أحبكَ

عمرًا ودهرًا

جهرًا وسرًا

بعدًا وقربًا

جزءًا وكلًا

كدرًا وعذبًا

لحنًا وشجنًا

طوعًا وكرهًا

أحبكَ

صديقًا وجليسًا

حبيبًا وأنيسًا

صمتًا وحديثًا

أحبكَ

أينما أقمت

وحيثما كنت

وكيفما شئت

أحبكَ

حتى يتشقق قلبي

ويتساقط شعري

وتبيض عيني

أحبكَ إلى حيث لا ينتهي الحب.

ولتعلم يا عزيز القلب أني لستُ بحاجةٍ لسماعِ أصواتِ الموسيقى لساعاتٍ ليسافرَ قلبي في ثنايا لحنها العذبِ الرنانِ ويبحرَ بحورًا في معاني الرومانسيةِ، ويخطَ دوربًا في فنونِ العشق، وليتحدثَ عن جلِ مشاعرِ الولعِ والهيام، تلك المشاعرِ التي طالما اختلجتهِ واقتحمت عليهِ خلوته حتى قبلَ أن يلقاكَ.

ولا يغريني الجلوسُ أمامَ البحر عبرَ لحظات الغروب كي يعتريني الحنين، فقلبي دائم الحنين إليك حتى وإن كانت أنفاسي تخالط أنفاسك؛ فحنيني إليك روح سماوية لا تفتر، وبعكسِ نواميسِ الطبيعة وردة لا تذبل.

وقلب -يا سيدي- مترف من الجفاء فلا راوي يرويه ولا ماء يسقيه، وهو على حالته تلك من الحب والحنين، ولقداسيته وطهره وورعه يأبى الرذيلة ويقبض على مبادئه كما القابضِ على الجمر؛ حتى لا ينحل عن معاني الفضيلة والعفة والشرف كما انحلى عنها الكثيرون حينما راحوا يعرضونَ قلوبهم عرض العبيد؛ يشبعونها من لحوم الحرام ما يفسد عليهم دنياهم وأخراهم، وكأني بهم يزجونَ بقلوبهم في نيران لهيب حرها لا يبقي ولا يذر.

أمدرك أنت حجمَ المعاناة التي يكابدها ويقاسيها ليحافظ على هويته ولا ينسلخ من سجته؟! فقلب كهذا هو دائم المجاهدة ولا أحسب جهاده هذا ينتهي،

لكن عزاءه الوحيد أن تهدأ أصوات معامع الحروب بداخله وهو في أحضانك سيدي.

ولتعلم أن قلبي طبع عليه ألا يحب سواك، فأنت أول الحب إذ ليس بعدك آخر، وأنت آخر الحب إذ ليس بعد حبك حب، فأنت وحدك الحب والمعنى وكل ما دونك ما لهم في قلبي مسكنًا ولا مأوىً، ولتعلم أنه يحمل لك في ثناياه ما لا يطيق حمله، وما منعه من أن يبوح لك إلا سيف الحياء الذي طوق رقبته ذبحًا، فوالله ما رأيت أشد تعذيبًا لقلب المحب من كتمان الحب عمن يحب، فإنه -وربي- لشيء يضيق به الصدر حد الانفجار إذ أنه كل شيء، وما يسعه العالم لعظمته، إذ لا يسعه إلا قلب من يحب.

وقبل أن أحرق قُبلاتي أعني كلماتي، أرسل إليك بعبير حبي سلامًا في غيابك ما رأيته، ودفءًا في بعدك ما أحسسته .. سلام الله لك حتى ألقاك ذاك اللقاء الذي لا نهاية له.

رسائلها ١

وكانت قد انقطعت عن مراسلته لكنها ما انقطعت عن حبه ومحادثته في سريرتها التي ما كان أحد يعلم ما بها إلا الله، من حب يأبى الرذيلة ولا يرضى إلا الشرف منزلة، وأشواق تأبى بقلبها إلا أن تحرقه بنيران متأججة ولا تزداد مع الزمان إلا اضطرامًا؛ فالفراق إما يزيد المحبة وإما يزيلها ومحبتها هي ما نقصت يومًا ولا زالت، انقطعت وما انقطع رابط الحب بينهما؛ فكيف للقلب أن يكف عن حب مادة حياته ويراه هو وحده سبيل سعادته!

فكتبت إليه:- مرحبًا بك من جديدٍ أيها الساكن أرضي، الغارب عن وجهي، مرحبًا بك في مسرح خيالٍ منهكٍ بك، يهطل بدموع شجنٍ وشوقٍ إليك، مرحبًا بك في مسرحٍ وحدك أنت جمهوره وأحداثه، بِدؤه وختامه.

وبعد:- كنت ليلة أمس في حالةٍ من الولع والشوق يرثى لها، وآه من تباريح الشوق لو تعلم! فلَكم وددت أن أتجذبك من دنياك إلى دنيايَ، نتجاذب أطراف أحاديثنا عن الأمس وكيف جنى فيه الشوق على كلينا، نحلق بطائرة الحلم في سماء مستقبلنا حيث أنا وأنت وزهرتان مني ومنك، وقد سكنت السعادة ديارًا نحن سكانها.

ولطالما تمنيت أن نتهامس معًا ببعض الأحاديث التي لا يفهمها إلا كلانا ولا يتم معناها إلا حينما تخرج مني إليك، تمنيت لو أتحدث إليك قليلًا لتقتل تلك الوحشة التي كثيرًا ما تقتحم خلوتي دونك وكأنما جحافل جرارة تحاول بكل ما أوتيت من قسوة انتهاك حرمة أراضي قومٍ يصرون على التصدي فلا يملُّون.

وخِلت في نفسي -يا أنا- أن ذلك الشوق الذي أقاسيه أنا، تُقاسي أنت أضعافه، فلا تختتم يومك إلا وقد خطت أشواقك رسائل تكنها لي في قلبك حتى يكون ذلك اللقاء الأبدي، تسرح بمخيلتك كل ليلة بتفاصيلي ورسم ملامحي متخذًا إياها من البدر في طلعته ظنًا منك أنها تعزيك عني، لكن نيران الشوق يا عزيز القلب لا يطفئها إلا دفء اللقاء، وعلى قلبك حتى ألقاك أينما كنت السلام.

رسائلها ٢

وكانت ذات مرة تقصد بلدًا غير بلدتها حيث تقيم فأعدت عدتها والقلب بعدته متصل بذاك الذي ألفته وهو به ساكن ومقيم وكانت جراحها منه فحسب، لأنها تحبه حبًا عظيمًا وما إليه وصول؛ فاسترعتها الأحداث ومرور الطريق والناس والأشياء بجانب الحافلة إلى أن تكتب إليه قائلة:-

لا أدري يأيها الغائب الحاضر لمَ أتذكرك -وأنا الذي لا أنساك- في سفري؛ الحافلة تسير في اتجاه والطريق على جانبي الحافلة يسير سرابًا في الاتجاه المعاكس بعيدًا عني، ربما لأن أمر الحافلة والطريق يشبه كلينا؛ دائمًا ما نسير بعيدًا عنا وعن رغبة قلوبنا وأرواحنا فحسب هي التي تتلاقى.

ولا أعلم لمَ أراك في الطرقات وفي كل شيء حولي ولا أعرف سبيلًا للكف عن رؤياك؛ ربما لأنك تكمن في كل ذرة مني؛ ساكن في قلبي، متمكن من عقلي، متلبس كُنْه روحي، عالق بي فلا سبيل للفرار منك إلا بالفرار من نفسي وكيف يفر الواحد منا من ذاته وإلى أين المفر؟!

عالق -يا أنت- في قلبي وعقلي

أراك في وجوه العالمين وكل ما حولي

وكأن كل ما في الكون أقسم أن يذكرني

بك ويُعيد كل ما كان بيننا وبسيفه يمضي

على قلبي وهو لا زال يحن وجرحه يدمي.

عالق -يا أنت- في قلبي وعقلي

وأنا ما عدت أقوى لقياك في حلمي

وغيابك المشئوم عن نظري

ما عدت أقوى تعذيبك لقلبي

فبربك أيها الراحل قل لي ما ذنبي؟!

وثمة سُجان -يا أنا- يعشقون الحرية ويتوقون لها حلمًا ويسعون لها مطلبًا لكنك وحدك سجني وحريتي؛ فأودك سجنًا نحيا فيه سويًا فيصير معك جنةً نرفرف بين رِياضها، وأريدك حريةً تغمرني بها معك أنت، فمعك أستشعر للحياة معنًا، ومعك أَجد تلك السعادة التي تهجرني في غيابك، معك أجدني ولا أجدني إلا حيث ما أجدك، فهل بإمكانك أن تعينني حتى أجدني؟!

اِتصال روحي

من العجيب في أمر الحب والذي هو كل العجب في ماهيته وتوصيفه وعلله وأسبابه وكل شيء يتعلق بأمره أن يعمل في المحبين عملًا عجيبًا وكأنه لا يود أن يفرقهم مهما افترقوا ولا يود أن يبعدهم مهما تقطعت بهم السبل، يوصل بين قلوبهم برابط متين كاتصال الروح في مادة الجسم.

وكان ما حدث كأن نسمة سارت إليه محملة بأشواق صاحبتها لتبثها له وتكشف ستر حنينها إليه وتفك عن صمتها أغلاله؛ فتحدثه النسمة عما كان من أمر صاحبتها ومن أمر رسائلها التي تفضها في الموقد بعدما تفض فيها أشواقها إليه؛ فكتب إليها:-

وصلني يا حبيبتي ذاك الكتاب الذي لم ترسليه، وتنسمت بتلك القبلات التي أحرقتيها، ولفحتني نيرانها وكأنك في وجهي أطلقتيها وفي الموقد ما رميتها، ولو أنك أرسلتيها لأخمدت نيران أشواقي إليك، ورويت ظمأ قلبي لعينيك، بل وقتلني كبرياؤك ذاك الذي يقتلني كل لحظة قبل أن يقتلك تواريًا عن حبك لي وشوقك إليّ.

أما إني والله يا حبيبتي على عجب من أمري وأمرك، كبرياؤك يقتلك ويعذبني، وشوقي إليك يحرقني ولقاؤك وحده هو الذي يطفئ نيران أشواقي فهل لتلك النيران المتقدة في صدري أن تنطفئ يومًا؟!

وفي بعدك يا حبيبتي يمر الزمان ماضيًا بثقله على قلبي لحظاته كسنواته، والعمر الراحل منه فناء مني ومن روحي، يمر وكأنه يمضي على قلبي بسكين فيمزقه بلا شققة ولا رحمة، ولحظة بلحظة تزداد فيّ معانيك، فيزداد قلبي لك حبًا،

ويزداد بك عذابًا، ولا أدري إلى أي حد سيصل ذاك الحب الذي لم ولن تدركي مداه وكل هذا وأكثر رغم أننا لما نلتقي بعد؟!

أما تعلمين يا حبيبتي أني أعشق فيك معانيك

حيث أدركتك بإدراكها ومعانيك كامنة فيّ فلا مفر منك إليّ لأني حيثما أفر لا أجدني إلا في معانيك غارقًا، وفي أحضانك مستلقيًا، ومعانيك فيّ هي الحياة وأنا إنسان لمّا يحيى بعد وأرجو من الله أن يجعل طوق نجاتي أنت حتى تُرد إليّ روحي وأحيا ذلك النعيم بين يديك.

وثمة عيون يا حبيبتي لا ترى إلا بمرآة الحب فيرى المحب الطبيعة بجمالها وجلالتها وكأنها انعكاس لصورة محبوبه في قلبه كما يشتهي وكما يحب بل وكأن نواميس الجمال جُمعت في ذاك الذي أحبه، إذ إنه يرى أن وسائل إبداع الخالق -سبحانه- فيه وحده وأنه آية من آياته؛ ولأن العين بطبيعتها تعشق الجمال عشقتك بكل ما فيك وبكل ما أوتيت من قوة وضعف، ولأنه لا سبيل للقياك كان عشقي وسيلة شوقي وتعذيبي.

ويحدث يا حبيبتي أن كلمة واحدة تخلق فيّ من معانيها ما شاء الله لها أن تخلق، وتسكنني في مفرداتها ما يكفيني معاجم الدنيا بأسرها، وتحوطني بما تحتويه من فرح أو حزن، سعادة أو تعاسة، حب أو كره بما هو كفيل أن أحزن وكأني ما عرفت للفرح طريقًا، أو أفرح وكأني ما حزنت يومًا، فما بالك بكلمة حب منك؟! وكم تبدع في قلبي من فنون الحب لك، وتتفنن في روحي من ألوان السعادة بك؟!

وبعد:- يشهد الله يا حبيبتي أن حبي لك لن يزعزعه شيء مهما بلغت قوته ولن يضعف قدر أنملة، إذ أنه متمكن مني ومن روحي وما حبك إلا قطرة ماء في بحر حبي الذي غرقتُ فيه، حتى وإن لم يقدر الله لنا اللقاء سأعيش واهمًا متأملًا لقياك، حتى وإن غادرني الأمل سأبث في روحي أملًا تخلقه، وسأظل أتوسل الله لنظرة إليك، وعناق بين يديك، ورشفة من شفتيك، سأظل أرجوه ألا يحرمني نقاء قلبك يا أنا.

إحتياج قلب

بينما كان الليل بظلمته يعد عدته كي يمضي، والقمر يتجهز ليتنازل لقرص الشمس عن كرسي عرش السماء الدنيا مدبرًا إلى حيث لا يلقاها ولا يسبقها فـ {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ } والفجر يلوح بأنواره مبشرًا بإشراقة شمس يوم جديد نحن بحاجة لكل لحظة فيه، يدب في نفوسنا مع كل شعاع من أشعة الشمس روحًا مفعمة بالحياة وكأن الفجر قد ترك فيه نضرة من قطرات الندى لتحيي ذبول أرواحنا وتبث فيها روحًا أخرى من روح الزمان حتى تقوى على الحياة وتكمل إلى حيثما قدر الله لها أن تكمل؛ النهار يتسلم من الليل الخلائق ليشمهم فيه وليسكنوا مسكنًا غير مسكنهم يتعاقبون فيه {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

هناك حيث القصور وناطحات السحاب التي كادت تلامس السماء لا بفعل طول البناء وإنما بتلك الأموال التي ترفع أصحابها الذين يتصرفون وكأنما قتلوا الفقر قبل أن يبعثروا أموالهم عبثًا في اللاشيء وقد أهملوا كل الشيء، هناك حيث الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطة تعانق أنوفهم السماء؛ ترفعهم أموالهم في الدنيا ليكون فوق العالمين والناس جميعًا وفي الأخرة تكون أموالهم ذاتها أول ما يكب وجههم في نيران لهيب حرها لا يبقي ولا يذر.

وهنا حيث الفقر لا يخجل من براءة الفقراء ورقة قلوبهم وطيبة نفوسهم ورضاهم به رغم قسوته عليهم، هنا تنام طفلة كبيرة القلب، عظيمة الهم صغيرة عليه تلملم أخاها في أحضانها تحاول جاهدة أن تزيح عنه برود وشفقة نظرة البشر لا برود البرد فحسب ولا يراهما الناظر من بعيد إلا كأنهما مثل كرة نسيها أصحابها في طريق وعر لكثرة تراكم بعضهما على بعض، ومن قريب تكاد ترى عظامهما من تحت ملابسهما التي لا يلبسونها.

هي ابتسامتها لا تفارق ثغرها المتشقق من شدة البرد، وقلبها لا تنقطع في الله آماله ما دامت الرحمة لا تنقطع منه، رحمتها بأخيها الصغير الذي تبنته وأصبحت به أمًا قبل أن تكون أمًا، وهو من أمومتها رغم صغر سنه كالابن البار الذي لا هم له إلا حماية أمه وطاعتها، لكنه صغير ولا حيلة له على ذلك، فهمها هي ليس همها فحسب بل همها وهم أخيها؛ ينامان وعينها عليه لا تنام.

فتأمل حاجة كل منهم للآخر وحاجة الإنسانية لأمثالهما، وحاجة العالمين لواعظ يوقظ ضمائرهم التي راحت تغط في سبات عميق، فجميعنا يحتاج أنا، أنت، هي، هو، والناس جميعًا، نحتاج بعضنا بعضًا ولا تكتمل الحياة إلا بهذا التكامل ليسد نقصنا.

وهذا النقص أسمى معاني الكمال الإنساني، حتى يظل اتصالنا بالله قاض الحاجات اتصالًا لا روحيًا فحسب بل جسديًا كذلك حسب حاجة الروح والجسد وكذلك حتى يظل الكون متناسقًا متكاملًا في سمفونية رائعة تثبت أن الواحد ما أتى إلى الدنيا بمفرده بل عليه مسئوليات نحو ذاته وأهله ودينه ومجتمعه والمسلمين من حوله.

وقانون الحاجة يقتضي تلبيتها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا والحاجة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ حاجة السيد لمولاه، وحاجة الرضيع لأمه، وطالب العلم لمعلمه، والابن لأبيه، والزوجة لزوجها، والقلب لقلب مثله رقيق لين يؤنسه ويرفق به، وحاجة اليتيم لمن يكفله، والتاجر لمشتري سلعته، وحاجة المرتجف لمن يطمئنه ويهدأ روعه، وكذلك حاجة النبة للماء ينهمر على كل ذرة فيها حتى يعيد لها شبابها ونضارتها.

وبالضد يكتمل المعنى؛

فكما الأرض اليبس بحاجة الماء كي يُحيي فيها الحياة من جديد كذلك الماء بحاجة إليها حتى يقدر له قدره ويشعر بقيمته والأنا التي لديه ويشعر أنه لولا حاجة المخلوقات إليه ما كان هو مادة الحياة كما جاء في التنزيل، ورغم هذا كله يبقى الله هو صاحب الجود والكرم ولا حاجة له لكل ما خلق وإنما هو يمن على عباد من مقتضى رحمته وعطفه بتكفل رعاية مخلوقاته، وهنا تتجلى كل معاني السعادة الكامنة في قوى العطاء التي منحها الله -جل في علاه- جميع مخلوقاته.

ليالي منتحر

إن الحياة تأبى إلا أن تتكلم بلغة يفهمها كل الوجود وهي لغة المحن والشدائد وذلك بأن تجرعهم السعادة -إن هي أرادت أن تسعدهم- بعد صراع مرير؛ فلا تربيهم إلا بالأزمات، ولا تعلمهم إلا التجلد ليتمكنوا من التخلي عن كل ما تمنوه لأنفسهم بقصر نظرتهم وقلة فهمهم للحياة والجزاء والعقاب، وحتى تعلمهم أن كل الملذات دون الجنة كاذبة، وأن كل الملاجئ دون الله واهية، وأن جنته سبحانه هي النعيم الأبدي الذي لا يمسهم فيه نصب ولا وصب.

والسعيد من أكرمه الله بفهم قويم وصبر جميل على ابتلاءات الدنيا فتهون عليه كل الصعاب بأن يوقن أن الدنيا دار اختبار وعمل وزرع حصاده الآخرة إما رضى وجنان ورضوان، وإما سخط وعذاب ونيران والعياذ بالله.

وصاحبنا هذا ما كانت له السعادة، وما كان له من الصبر نصيب، بل كانت حياته عذاب كل العذاب، آلام الفقد وخذلان الأحبة ووحدة موحشة تفتك به وهي الوحيدة التي كانت تلازمه ولا تفارقه أبدًا ولا يجد لنفسه منها مناصًا؛ فكلما هرب الواحد منا من الوحدة وجد نفسه وحيدًا بطريقةٍ أخرى، ووجدها تنفذ إليه من طريقٍ آخرٍ من حيث لا يدري؛ وكأن وحشتها نابعةٌ من أعماقه هو لا من غياباتها هي.

رأيته ذات مرة وقد نحل جسده وتمكن الضعف من بنيته وأكل الحزن عزيمته فكان كعود الأراك أكله السوس حتى بات هزيلًا كبيت العنكبوت وهو أهون، برز عظم وجهه كمن رد إلى أرذل العمر، لا يعي من الدنيا ولا مما حوله شيئًا،

وتملكت التعاسة منه ملكًا عظيمًا حتى إنك لتراه فلا تحسبه إلا كهلًا قد بلغ من العمر عتيًا لا شابًا في ريعان شبابه وأبهى عهده من عمره.

سألته عن حاله وأحوال دراسته وكان قد مضى زمنًا طويلًا ما رأيته، رد يقول:- حالي ككل يوم لا أعرف حتى كيف يكون، صرت مغيبًا لا أعي شيئًا ولا أبالي بشيء، حسن الأشياء في نظري يماثل قبحها وقربها بات كبعدها.

أنام وأقوم وكل شيء على نفس ذات الحال لا تغيير ولا تجديد، لا حلم ولا حياة فقط أؤدي فرض ربي وأنتظر موعوده حتى لا أعرف كيف ألقاه بكل خيباتي تلك غير أني أود لقياه؛ فهو الرحيم العدل وأنا المظلوم الذي خانته الحياة وقدمته قربانًا لأضراسها تطحنه كيفما تشاء؛ حتى صار الموت أهون علي بكثير مما أقاسيه.

ويا للعجب كيف يحوي هذا الليل البهيم في صدره هذا الكم الهائل من الأحزان والخيبات!! ويا لها من قوة أودعها الله فيه تحيي أقوامًا وتميت آخرين؛ فيأتي الليل لينخر في حقب الذكريات، ويضاعف الجروح والآلام ويجددها فينا كلما طفقت تندمل، ويقاتل البائسين -أمثاله- حتى يقتلهم.

فلا ترانا إلا وقد لفظتنا الحياة إلى حيث اللامرد لا أدرى ألسئمها منا ومن أنيننا الذي لا يكف أم أننا نحن الجانون على أنفسهم بهذا السأم والأنين؟! بات الألم يفتك بنا ولا حراك، وباتت الكلمات تفور كما فور الزيت على النار ولا بوح، وحينما علمت أن الكلام لا يجدي والصمت يقتل صمت، صمت طويلًا حتى حقق في وعيده، بتنا وقد رفعنا الراية البيضاء، فتبًا لهذا العجز الذي بات معقودًا على نواصينا.

وبت يا صديقي مصابًا بعدم المعرفة لا أعرف مكان إصابتي ولا زمانها ولا حتى ماهيتها، فالألم يسري في جل أركاني ويفتك بكل ذرة فيَّ، ولا أدري منذ متى وأنا أعاني من هذا الألم الذي أجهل موضعه، ولا أعرف حتى اسمه، وربما حتى لا أدرك علاجه؛ فأنَّى لمريض لا يعرف موضع جرحه أن يصف ألمه ليعالجه،

وهو لم يدرك منه إلا ألمًا كألم الموت، ونزاعًا كنزاع الروح، نزاع واحد سبب ألمًا لا عد له ولا موضع له وإنما هو ألم يسري فيك سريان الدم في الماء.

لكن ربما يكون مكان الإصابة هو قلبي الذي لم يبخل عليهم بالحب يومًا، قلبي ذاك الذي لازم فطرته فلم يحقد ولم يراوغ ولم ينافق، وإنما كان محبًا صادقًا من البداية وحتى النهاية؛ فلم يعرف للكره ولا للكذب والخذلان طريقًا؛ فكان يجبر كل مكسور، ويهدأ روع كل خائف كالأم وهي تمسح دموع صغارها وتطبب جروحهم وتداوي آلامهم، فكان للحنان مصدره، وللحب منبعه، -وللأسف- للخذلان مسكنه.

أما بالنسبة لزمن الإصابة فهذا أيضًا لا أعلمه فلربما يكون منذ ذلك الخذلان الذي أطاح بي ممن أهديتهم حبي وملكتهم قلبي فذهبوا به كل مذهب، وطعنوا به أيَّما طعن، وخانوه أيَّما خيانة، وكسروه أيَّما كسر فما يقوى على جبره جن ولا بشر.

وأما عن ماهية إصابتي، فربما تكون نشاط في خلايا الذاكرة فلا أنسى خذلانهم، وفرط عمل لخلايا الحس فيزداد تألمي مع كل خنجر منهم، وخلايا سرطانية سرت بشغفي حتى قتلته، وبرد قارس أصاب مشاعري حتى تجمدت، ونقص أكسجين لروحي حتى ذبلت، وغصة في حلقي حتى تحجر، وغليان نيران في قلبي حتى كاد أن ينفجر، وأخيرًا لا أحسب إلا أن قلبي مصاب بمن أحب.

فنعم أنا إنسان حي ولكن مصاب بموت كل معاني الحياة؛ فلا بأس بخليط من التناقض، وكم هائل من حزن دفين، ولا بأس بسحابة من اليأس تغمني وتخيم علي قلبي، ولا مانع من الغرق في ملل قاتل واكتئاب فاجر وبصر زائغ، ولا بأس بأن يعتريني شعور برغبة عارمة في مغادرة الدنيا وكل ما فيها من غدر ونفاق وحزن وألم.

وكم تمنيت يا صديقي أن تنفذ رائحة أحبتي من باب سردابي لتقتحم أنفًا تحسس ريحهم وقلبًا يداويه حبهم ويأنسه قربهم، فيطير مشتاقًا متلهفًا إليهم،

وأنفض عني غبار حزني وتراب كآبتي الذي غطى شيبتي التي دفنت شبابي بالحياة.

وهم قد أقبلوا ليطمئنوا عليَّ وما إن كنت بخير، وما إن كنت صادقًا حينما أدعي أن الأمور تسير على ما يرام، وما إن كانت السعادة لا تفارقني كبسماتي المصطنعة التي يرونها خلف شاشات هواتفهم ووراء ستار أكاذيبي التي احترفت في أدائها.

ولكني لست بخير، والأمور ليست على ما يرام، والسعادة لا تعرف طريقًا لسردابي، وربما عجزت عن طرق بابي، وااحسرتي فهم لم يفعلوا ولن يفعلوا؛ فقد تخلو عني وعن قلبي وكأني كنت أروي قلوبهم جفاءً لا حبًا؛ فقد تملكت قلوبهم القسوة وحيلت وحشًا كاسرًا كسرني بجفائه لا بمخالبه وأسنانه.

والآن .. فقط الوحدة هي التي تنفذ من باب سردابي تتملكني ولا تغادرني، ولك أن تتخيل كم تنهش فيَّ نهشًا، وتأتي على ما بنيته من ضعفٍ في ضعفي المخبوء وراء قوتي المكذوبة، وأما الآن فإني منهكٌ للغاية وأشعر وكأنني مدينة ليس بها إلا جثث هامدة وأنقاض حروب دامية.

وكانت بداية أحزاني وتعاستي أني أتيت إلى الدنيا أحيا فيها وقد نزعت منها الحياة؛ دخلت الدنيا وقد خرجت منها أمي فقد تركتني وأنا دون الست سنوات ولا تساعدني الذاكرة كثيرًا لتذكر ملامحها وتفاصيلها جيدًا لكن ما أذكره تعاستها مع أبي وعدم رضا كل منهما عن الآخر، وكانت دائمًا بائسة مثلي لا تعرف السعادة لقلبها سبيلًا إلى أن رحلت بعدما ملت من الحياة وملت الحياة من تعذيبها.

وبعدها أكملت والحزن قيد أضلعي طفولتي البائسة؛ طفولة تفتقر إلى حنان الأم وتوجيه الأب وحسن رعايته ودفء قربه، كان معي ولم يكن، حضرت قسوته وغاب قلبه، الرحمة والحنان لا يعرف إلى قلبه سبيلًا، والحب ليس في قاموسه،ولا أدري أي القلوب قلبه؟!

وبعدها حرمت أنس الأصدقاء وما رأيت إلا خداعهم وتصنعهم ونفاقهم لا يعرفون حبًا ولا يرعون شعورًا ولا يجبرون كسورًا هم صانعوها كطينة أبي -رحمه الله- تمامًا، وكنت بعدها كلما حاولت أن أقول لأحدهم يا "صديقي" يأتي ليزج الكلمة في نحر فؤادي فلا تخرج، والحياة إذا ما غاب عنها الأب وماتت فيها الأم وغدر فيها الأحبة لم يبق فيها ما يحسن عزاءنا ولا يلتهم وحدة تنهش قلوبنا، وقل بعدها على الدنيا السلام.

وكان أبي وأمي يكرهان بعضهما البعض ولا يطيق أحدهما الآخر فيجعلونني أكرههما وأكره نفسي والحياة، ولا أطيق نفسي معهما ولا أطيق الحياة دون وجودهما ذلك الوجود الذي يؤتي كل ذي حق حقه ويوفر الطمأنينة لكل خائف مرتجف، ويمد يد العون لكل من كسر ساعده.

والآن هما رحلا ورحلت معهما مشاكلهما وغاب الكره عن بيتنا وخفتت صوت معارك الصباح التي طالما ابتدأ بها يومهما ومعارك أخرى تختمه، وأمضيت حياتي أسير إلى حيث أصير إليهما معبأ بخيباتي وتعاستي التي ولدت حيث أنجباني هما -رحمة الله علي وعليهما-.

أما عني الآن فإني لا أحب أحدًا ولا أكره أحدًا، لا أريد أحدًا قربي ولا حزينٌ على بعد أحد، وكذبًا أنا لست بآسفٍ على تضحياتي في سبيل إسعاد من كانوا مصدر تعاستي، وكذلك غير نادمٍ على الإطلاق لأني كنت وحيدًا دائمًا، فقط أريد أن أنام ولا أستيقظ أبدًا.

رسائله ١

إليك .. .

ترددت كثيرًا قبل أن أكتب لك كتابي هذا، ولكن ما الجديد؟

فأنا دائمًا ما أتردد في كتابة ما يعبر عني وما يتعلق بي لا أدري أهذا من حبي الزائد للغموض وكراهيتي أن يغوص أحد داخل أعماقي ويكتشف مكنوناتي وخبيئاتي أم أني أخاف أن يسيءفهمي أولئك الذين تركوا حياتهم ليعيشوا في حياتي؟؟! آه آسف جدًا لثرثرتي عن نفسي التي لا تعني لك البتة، وهرائي الذي لا طائلة منه، وعلى كل لن أطيل عليك فأنت لديك ما يلهيك عني لكن قلبي أجدب لا يعرف كيف يتلهى وقد لمح لك بالكثير مما يتعثر عليه قوله وما يصعب عليه إخفاءه، فلما رآك تصد عن فهم مراده صرح لك بما أراد، صرح لك أن كل هذه الأمور من حب واحتواء واهتمام تعني له كثيرًا لكن ليته لم يصرح، فما وجد إلا جفاء يعقبه جفاء وكأنك لم تعِ ما قاله، بل كأنه لم يقل.

أعلم أني أكتب فيما لن يفهم لأنك لا تود أن تفهم كذاك المعلم الذي بذل كل ما بوسعه ليوصل المعلومة لتلميذه وما إن أحس أنه حذق المعلومة وتفهمها جيدًا اكتشف أنه أجدب إذ أن تلميذه أصم لا يسمع، وأعلم أني أكتب فيما لن يصل كذلك الغبي الذي يجد في الركض في طريق مظلم وإذ به يتفاجأ أنه كان مسدودًا منذ البدء لكنه أصر على إكمال المسير وكأنه يذوق للخسارة والخزي طمعًا لذيذًا لا يجده في الفوز والجبر لكثرة اعتياده عليهما، وضاع ركضه هباءً منثورًا، وأعلم أيضًا أني أتمنى ما لن يحدث كتمني بعث حبيب ضننت عليه بمشاعرك لتخبره وهو جثة هامدة أنك تحبه، ولكن هيهات!!!

لكني مصر هذه المرة على الحديث لأني لم أعد أقوى على التحمل أكثر من ذلك، وربما أندم بعدها بلحظات، لكن لا بأس فقد اعتدت الندم أيضًا، لكن ندمي لا لأني قلت ما قلت، وإما لأن ما قلته كان فيك أنت، فلا أحب أن ينظر إليك أحد نظرة

انتقاص من شأنك حتى وإن لم أكن أحبك بالقدر الذي يكفي.

وبعد:-

لا أحسب أن كل ما أعاني منه سببه ذلك الجفاء منذ اللحظة الأولى بيننا، بل إني أوقن ذلك، جفاء قاتل أوشك أن يأتي علي لأنه - وربي - يؤثر علي كثيرًا وأنت تتجاهل أمري، ورغم هذا أحاول جاهدًا الإصلاح بيننا لكن لا جدوى من إصلاح من جانب واحد، فأنا أبني وأنت تهدم كل ما بنيت وتأتي عليه من جذوره، أحاول أن أزداد منك قربًا وأنت لا تزداد عني إلا بعدًا.

أحاول أن أعرفك على نفسي التي لا تعرفها، فأنت لا تعرف عني غير الاسم والصورة، لا تعرف أني أحتاج لحضنك لطبطبتك، أحتاج مشاركتك لي في كل تفاصيلي، أحتاج

إلى ما يأنس به الحبيب من حبيبه، أحتاج إلي أن أتحدث عنك في شغف وولع كما يتحدث القوم عن ذويهم فما يكون من أمري إلا الصمت الذى أوجع قلبي فلا أحب أن أنافق فلم يكن من أمرك ما يتحدثون به.

أنت لي القريب ولكنك من قلبي بعيد وكأنك غريب فلم تصنع لنفسك مكانة في قلبي ولم تخلد ذكراك في عقلي، وأنت لا تعلم أن هذا يحزنني ويؤلمني لكن حزني فك قيوده حتى صار جليًا على معالم وجهي وفي ذبول عيني، أنت لا تعلم أني أتمنى وضعًا أفضل أتسمعني أتمنى وضعًا أفضل، وحينما تأتِ نبنِ سويًا علاقة قوية لا تأثر عليها تقلبات الزمان، ولا تضعفها عثرات الطريق،

لكنك لن تفعل لأن ما مضى أكثر بكثير مما بقي.

سمي هذا الحديث كما شئت أو سمه "حديث بلا جدوى" لأنه لن يؤتي ثمرته ولا حتى ثمن الحبر الذي أهدر عليه، لأني أكتب وأنا أعلم أنه لن يفهمني أحد؛ فهي كتابات بمثابة رموز معقدة ولم يفهمها المقصود فكيف يفهمها قارئ غريب عابر؟!

رسائله ٢

صديقي المقيد بذاكرتي لا أراك ولا ألقاك، ولكن كثيرًا ما أكتب إليك ولا زلت أحادثك مثل الخيال سرى وما لنا لقاءٌ لدرجة أني أشعر أنك سئمت حديثي كما سئمت أنا فعلي الجنوني هذا إذ إني أحادثك، أحادث سرابًا كاذبًا لا يراني ولا يسمعني، وبت على وجل ألا تكون رسائلي تصلك فتضيع حروفي المتلعثمة من كثرة اعتياد الصمت هباءً منثورًا ولكن على أية حال سأفعل؛ فليس لي بديل غيرك.

صديقي لا أحسب أنك قد نسيتني لكثرة تحدثي إليك، فقد كنت معك البارحة أتذكر؟ حينها أخبرتك أني مصاب بوحدة تنهش فيَّ نهشًا وتدك حصوني دكًا، تطوقني من كل جانب كمارد عملاقٍ فتأتي عليَّ؛ فما عدت شيئًا ذات قيمة يذكر، إنما هو قلب ممزق وفكر مشرد، وإنما هي أحاديث صامتة وملامح باهتة وأفعال متضاربة، ونفس أوشكت أن تفارق الحياة.

ووحدتي ليست بجلوسي مفردي لساعات طويلة لا جليسًا ولا أنيسًا بل تعدى الأمر أني وحيد وسط حشد من أناس لا يفهموني رغم أني أفهم، لا يستمعون إلي رغم أني أستمع، لا يهتمون لأمري رغم أني أهتم، أتابعهم وأتابع أحاديثهم وتملقهم ونفاقهم فأشعر بالفخر لأني اخترت -وهي من حكمت علي بذلك- الوحدة جليسًا مخلصًا لا ينافقني ولا يفارقني ولا يمل مني ولا من كآبتي وحديثي.ولكن أحيانًا أرى من بينهم الصادقون من هم في حبهم مخلصون، يهتمون ويمزحون ويضحكون فيأخذني شيء من الغيرة، والشفقة على نفسي التي لم تجد إلا أقنعةً مزيفةً وسرعان ما سقطت عند أول امتحان لها، وينتابني شعور بالخيبة لوقوعي في الأشخاص المرحلية الذين لا يمكثون وسرعان ما يرحلون ويعيدون أدراجهم حيث بدأوا ولكن بعد أن علقوا وآلموا، علقوا قلوبًا مصابة بالتعلق وآلموا بشرًا هم بطبيعة الحال متألمون ولم يُؤلِموا.

صديقي تمهل ولا تأخذنك الظنون غير مأخذ؛ فالأمر على ما كان عليه لأني أستشعر من نظراتك التي لا أراها أنك تحسبني سأقول لك "تغيرت الأوضاع" لا -وربي- فكل شيء باقٍ كما هو عليه الآن ورغم كل شيء يظل الأمل في الله باقٍ، ولكن ربما تكمن

المشكلة في أني إنسان بي وباسمي "مادة الأنس" لذا فأنا أعشق الأنس والاهتمام، أعشق التفاصيل، ولكن لما أنا عليه تمنيت لو أن مادة الإنسان غير مادة الأنس.

فلتأخذني إليك يا صديقي فلربما يجتاحني بردٌ لا يبدلني به دفئًا إلا حضنك أنت، ولربما لفظتني الدنيا من جعبتها وضاقت بي الأكوان ولن يسعني إلا قلبك أنت، خذني إليك كلًا أو جزءًا المهم لا تدعني أبدًا؛ فرجفة الرحيل تلاحقني وتفتك بي، خذني إليك يا صديقي وارفق بي لأني موقنٌ أنني لست بخير.

وختامًا للقول وليس ختامًا للوحدة، صديقي إني مصاب بالمرحلية، بالتعلق، مصاب بالتفاصيل، مصاب بالوحدة، مصاب بشخصي، مصاب بك أنت، وخلاصة القول "إني مصاب بحياة ليست بحياة" فيا رب رفقًا بقلبٍ أتاه الموت من كل مكانٍ وما هو بميتٍ.

احتضان قلب

جاءه بالأمس والدموع متزاحمات في حبات عينيه، والبسمة قد طواها الأسى هاربًا بين طيات فؤاده الذي ناء بالخيبات والآهات، متوددًا لتلك الغصات أن تكف عن النخر بمجمع حلقه، يستلها كما الشوك من الحرير لا ينفلت منه إلا بالدم والصرخات، راجيًا كف ذلك الضجيج الذي راح يدك حصن عقله ويعبث بأفكاره، جاء يبعثر في أحضان صاحبه تلك الكلمات المتحجرات في حلقه، وقد باعدت بينه وبين قرير العيش ولذة الرحمات.

فاستقبله بمجامع قلبه والدمع من عينيه مشمرًا مشركًا إياه آلامه وأوجاعه، أعراه مسامع فؤاده مصغيًا مربتًا على كتفه بـ "أن لا بأس عليك يا صديقي، وقلبي حيثما يكون قلبك إليه مهرولًا، وإن لم يكن منه مداواةٌ لقلبك، كان منه البكاء والألم على آلامك، فامضِ بنا يا صاحبي وإن طال الحديث فإني إليك مستمع، وإن طال الزمان فإني -وربي- بجوارك ماكث".

فاطمأن إليه بقربه وأخذ بلجام لسانه يطلقه محررًا وكأنما حمم بركانية تثور بصدره فلا تبقي ولا تذر، حتى كادت تفجره إن هو لم يأذن لفوهة بركانه أن تنفتح؛ فتثور على الحلم الضائع في شبابه الذي ولى هاربًا بين الضباب، وتعلن غضبتها على ذلك الواقع المرير المخيب لآمال الطامحين الذين يحاربون كي يكونوا ناجحين، وأخذ يحدثه قائلًا:- بعدما ملَّ القلم مني ومن آهاتي وأناتي، وتطايرت أوراقي دون كلماتي المسافرات، ومضى السرب في السماء محلقًا دون أحلامي، ونضبت جعبتي من حروفي دون أحاديثي، ما عدت أعرف ماذا أقول ومن أين سأبدأ؟! فقط أريد أن أفعل شيئًا مغايرًا لعجزي وتعاستي التي أقعدتني كما عجزة الهمة مذعنين لواقعهم خاضعين، لكن لا أدري ماذا أفعل، وما الذي يجب علي فعله إن استطعت، وما حاجتي التي تحول بيني وبين الوصول؟!

ربما أنا بحاجة لشحن جعبتي ببعض المواضيع غير المثيرة للشفقة عليَّ، والتي لا تشعرك بالملل مني ولا بتهتك صدرك من حدة أحاديثي، لا أعلم شيئًا غير أنني بحاجتك؛ بحاجة إلى يدٍ تشد على يدي، تقومني حينما أزل، وتنهضني حينما أتعثر، قلبٍ يصغي إليَّ حينما يكون الناس نيامًا، أحادثه عن طريقي الذي لم أكمله نحو حلمٍ ضائعٍ عجزت دون الوصول إليه لكل تلك العقبات التي حالت بيني وبينه، وما حاجتي التي أظهرها لك وأُواريها عن الجميع خشيةً من ظهوري متبلدًا ضعيفًا إلا قدر حبي لك وركون قلبي لطيبة قلبك.

فنحن أحيانًا كثيرةً ما نكون بحاجة لأن نتحدث أكثر مما نكتب، نحتاج لنحرر أولئك الكلمات المتعطشات للتحرر؛ لتلاقي نهر حبك واحتوائك فترتوي، فاحتضنه صاحبه قائلًا:- «ومن قال لك أني سأدعك تمضي دوني، فأنا سأرافقك في شدتك أكثر من ظلك؛ يغيب الظل ليلًا وأنا معك ليلًا ونهارًا» فتبسم صاحبنا مطمئنًا لحديث صاحبه وقد أزاح بكلماته الناعمات صخورًا عن كاهله.

وجملة القول أنه يحدث أحيانًا أن يكون صدق إقبالك على قلب مرتجف وكأنما ذئاب سعورات تطارده وتعوي بحجراته خيرًا عنده من عشرات الكلمات المزخرفة المتجردة من معاني أنس المشاركة، أن يكون حضنٌ مُطمئِنٌ أعظمَ أثرًا في نفسه من سطور من النعي تأتي مجوفةً لا فيها من الدواء ما يشفي، ولا من حسن الوقع على الآذان ما يصلح.

من بعض قصتنا

كُن ثلاث فتيات لا يربطهن من روابط الدم والعلاقات الإنسانية شيئًا إلا علاقة مكنونات القلوب وما تجنيه جراء حماقتها التي ترتكبها فينا، ولا يجمعهن إلا رابط دماء الحب سيان فيه خداعه أو تفرق الأحبة بعد ما كان منه أمرهم، وحتى مجاهدة لئلا يوصم صاحبه بوصم الفضيحة والعار؛ فلا يقربه ما دام يود أن يصل وهو بكامل طهره وعفافه.

ليس لديهن من الخبرة ما يكفيهن شر مكر كل خبيث عربيد أحمق، ولم يذقن من الحب إلا آلامه، ولم يذقن من مرارة الفقد إلا فقد آبائهن روحًا ومعنًا لا نفسًا وجسدًا فلا لمسن منهم حبًا ولا وجدن عندهم اهتمامًا وقربًا، وما عرفن من الدنيا غير الحاجة لكل ما يتملك من قلوبهن ملكًا عظيمًا مما زج بقلوبهن إلى ما لا تحمد عواقبه.

أما الأولى فقد تعب الشيطان في إفسادها أكثر مما تعب فيها صاحبنا، والثانية فقد أقسم الحب إلا ويعمل فيها بعمل تعذيبه؛ فراق بعد سكن وهجر بعد قرب، والثالثة ذاقت من الآلام ما ذاقت وكان أشدها غدر صاحبها وبعدما صارت مسخًا منه خذلها ورحل، وأما عني أنا فقد وصلني خبرهن من صديقة لهن.

تحكي صديقتهن على لسان الأولى:-

كنت لا أعرف عن قصص الحب ولا المحبين شيئًا ولا أود أن أعرف ولا أريد لقاءً على غير مراد الله، لم أكن أريد أن أحب إلى حيث لا يجوز لي أن أفصح عن حبي؛ فتتحكم بي شهوتي ويقيدني هوى نفسي فأزل وأضل؛ فالمحب نادرًا ما يوفق إلى الصمت لأن قوة نبض قلبه بالحب أعظم من قوى الحياة فيه فلا يعرف كيف يغلبها ويغالبها، والإنسان إن زل ووقع ما يعلم بعدها إن قُدر له النهوض والعودة أم لا، ولا يخيل إليه كم العناء الذي يقاسيه حتى يصقل ويعود نجمًا لامعًا كما كان.

غير أنني لا أعرف متى وكيف خيل لي حبه سرابًا كاذبًا وهمني به هو وتوهمته أنا لنفسي فجاهدت نفسي فيه ما شاء الله لي أن أجاهد، حتى كدت أموت جراء معاناتي وكأنما الروح بلغت الحلقوم، وكأنما الفؤاد إثر النيران التي اضطرمت به يود أن يسلم للدنيا أوراقه ويدعها مغادرًا كل فيها خلف ظهره المنهك.

وما كانت معاناتي أشد من معاناته حينما فشل في إيقاعي في مصيدته، وغلبة الشيطان في إيقاعي وإفسادي كانت أشد من غلبته؛ إذ إني ما إن كنت على شفا جرف هار فأنهار وأسقط، كنت ألجأ لله فيعصمني ويربط على قلبي ويعزز فيَّ معاني الشرف والفضيلة فأستقيم من جديد، حتى ملَّ كلاهما مني وكذلك هوى نفسي عرف أنه لا غالب له عليّ ما دام قلبي معلق بالله يرجو رضاه ويخشى عذابه.

سلكت طريقي الذي اعتدته طريق نور وحق مبين وأنا في قمة سعادتي وراحتي بعدما كنت سأحيد عنه حينما جاءني والشيطان وعدة الفساد معهما يعترف لي بحبه ويلون الدنيا أمامي بألوان الزيف ويخلط الحق بالباطل يودني صديقًا وحبيبًا إلى أن يفسد على قلبي ويرتوي منه ثم يذهب ويستقي من أخرى ويمتص دماءها.

أحمق ورب الكعبة لا يدري أنه ما يجني من فعلته إلا شقاء وعناء الروح

في أصل مادتها من العفة التي لطخها بدنس جرمه، وأفسد عليها وعلى قلبه معاني المودة والرحمة التي حكاها الله لنا في التنزيل، وأن هذا لا يزيد من رجولته بقدر ما ينقص ولا يعطي قلبه بقدر ما يأخذ منه.

وحُرم على الحب في كل زمانٍ ومكانٍ أن يجتمع بالخوف في آنٍ واحد، فدائمًا وأبدًا لا حب مع الخوف؛ لذا كان عليها أن تسلم بأنها لا تصلح للحب لأنها خائفة مرتجفة دائمًا في القرب والجهر معًا؛ فلا القرب يطمئن فؤادها ولا مع الهجر لديها ما يكفيها مؤنة تحمل عنائها وحرق أشواقها، وليس خوفها ممن أهدتهم حبها وإنما الخوف كل الخوف من أن يضيع ذلك الإهداء في معصية من ألقى في قلبها الحب؛ لذا فهي رغم قلبها وأشواقها بعيدةٌ كل البعد عنه حتى يأذن الله لها بذاك الذي لا تعرفه لقاءً تحت شعار الحب الأبدي "لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا" فيكون هو للفؤاد السكن والرحمة وكل الحب واليقين.

وتقص عن الثانية قصتها

أنها وبعد سنين من الصبر والحب الذي يتحاكى به المحبون ويتداولونه فيما بينهم مات زوجها دون الدخول بها ويا لفجيعتها به حينما سمعت الخبر وقد كانت تحبه حبا عظيمًا وصبرت معه صبرًا مريرًا أمل أن يجمع الله بينهما لكنها الدنيا لا تصفو لأحد منا على وتر وتأبى الأقدار إلا وتبتلينا في من نحب فنحن لله وله راجعون فلا بد لنا أن نسلم ونصطبر وفي جنات النعيم الجزاء.

تروي على لسانها:-

كنت أعلم أنه لا بد لنا من لحظة ينتهي فيها كل شيء بفراقنا؛ فثمة الحياة الموت لكني ما حسبت يومًا قط أنها ستأتي قبل أن نرتشف من الحب والسعادة ما يروي أرواحنا التي أذابتها مرارة صبر دام سبع سنوات، وسيمضي كل شيء لسبيله وتبقي أنت في قلبي ماكث؛ فما أحببت غير مرة وكلها كلها كانت لك.

والسعيد هو من وفق لحياة هنيئة قرب من يحب تقر فيها عيناه بنظرة إليه عند الصباح وتوديع لنجوم السماء في عينيه والتعيس من حاله كحالي، أحببنا بعض دون أن يتم الحب، والقينا وما اكتمل اللقاء، وافترقنا قبل نعطي أنفسنا حق تنهيدتها بعد وعثاء السفر.

لا أدري لِمَ يبدو العالم فارغًا هكذا فهو شخص واحد الذي رحل، ولا أدري كيف للنسمات أن تحمل لي روائحه وليس بيني وبينها اتصال، بل لا أدري كيف نفذ من التراب عطره وكيف اخترق قلبي المكلوم؟!

ولا أحب البقاء في مكان طالما جمعنا سويًا، لذا كان علي الرحيل، وإذ بي يستوجب علي الرحيل عن هذا العالم كله وكأن أرواحنا التقت عند كل ذرة فيه، والصبر بعد رحيلك على قلبي محال، وقمة الوحشة رغم نزاع الروح أنه لا أحد يعلم أنك تفقد روحك لحظة الوداع، وكأن في نزاع الروح كم غير كاف من العذاب، وما أقسى أن تصاب بالحزن فيعبر عنه قلمك فتصير حينها أسيرًا للحزن والكلمات معًا.

وأما ثالثتهن فقد كان عزاؤها الوحيد أن تخونها ذكرياته كما خانها هو لكنها كانت أوفى منه، كانت وفية للحد الذي جعلها لا تفارقها لحظة واحدة فكانت تقتلها بلا شفقة ولا رحمة، ومما هو مثير للشفقة أن يكسر بقلبك أولئك الذين كرهت كسر قلوبهم يومًا.

وقد قالت لي ذات مرة بحرقة لا زالت تأخذ بمجامع قلبي وتؤتي عليه "لا زلت أحبه ولا أعرف سبيلًا لبغضه وربي لا أعرف، والنسيان قد حيل بيني وبينه بحائل منيع فلا أصل إليه ولا أحصل عليه فأستريح من آلام لا قوى لي على تحملها وكأن هذا الأصم الأجدب يراهن على قوة ذاكرتي فيغلبني فأتذكر ما لم أنساه، غير أنني عفوت عن الجميع إلا هو"

ثم اختصرت دموعها الكثير والكثير، فلله در دموع تنهمر قبل أن تدق أبوابها!! وما تلك الدموع التي نثرتها في أحضاني إلا بعضًا من دموع قلبي الجريح، وما مواساتي لها إلا تربيتًا على نفس ذات الجروح!!

والآن يبدو أنهن لم يكن ثلاث حالات لثلاث فتيات فحسب بل كن أربع سحابات من الحزن مغيمات بالضباب، وكأن المصائب من قلوبهن لا مصائب بل مخالب وأنياب؛ فالظاهر من نبرة الألم التي تتحدث بها صديقتهن أن لها باعًا مع آلام ما شفيت وجروحًا ما التأمت.

أشواك

تحكي إحداهن قصة تعذيبها لإحدى المقبلات على سن الفتن حيث يبلغ الاحتياج ذروته والطيش يرتكب في العقل جريمته والشهوة إن لم تقيد بقيد الشرع والدين كان فساد القلوب ينم عن ضياع الأمم وفساد أخلاقها، والمرأة بطبيعة الأمومة التي تجري في دمها تخاف على أبناء جنسها، تحضهن على الصلاح حتى وإن لم يكن من فعلها صلاح غير أن كل الصلاح في نبل مقصدها وصدق نيتها.

وبدأتها قائلة:- علمت مؤخرًا بعدما فات الأوان لأن أنسحب بقلبي قبل أن تتمكن الآلام منه قدر ما تمكنت أنني سلكت دربًا ظاهره فيه الحب وباطنه من قبله العذاب، يتسلمني فيه الندم من كل حدب وصوب ممزوجًا بآلام ليس لي بها مستطاع وليس لي منها مناص.

أحبته حبا عظيمًا وليست العلة علة الحب وإنما علة التسليم والخضوع والنزول عن الفضيلة بأن ترضى المرأة بأنوثتها أن تكون منزوعة الحياء ومسلوبة التقدير حتى بينها وبين ذاتها، وما تجني من خضوعها في الحب إلا أشواكًا تؤذيها هي وحدها، وأن تعيش بلا هوية وقد فقدت فضيلتها.

والمرأة إذا أحبت ووفقت إلى الصبر والكتمان كان حبها مادة تعذيبها وفي كلا الحالتين عذاب غير أن العذاب الثاني عذاب بأقل الخسائر ما دامت الواحدة لم تزل تلك الزلة التي تفقدها شرفها ودينها وذاتها؛ فعذاب كل أنثى رجل وهم كل رجل أنثى إن هو حصل عليها كان همه الأول حمايتها ورعايتها وتوفير سبل سعادتها كواجب الراعي على الرعية، وإن لم يكن له سبيل إليها كان همه أن يتناساها بغيرها بطرق مشروعة أو غير ذلك، أو أن يموت تحسرًا عليها.

لكن حزن المرأة وهمها ليس رجلًا لأنهن خلقن والحزن معهن وكأنهن من رحم الأحزان خلقن، لذا كان حري بي وبكل أنثى أن تغلق قلبها وتشد عليه حتى يكون طاهرًا عفيفًا بريئًا بأول نبتة حب شريف نقي تغرس فيه من يد رجلها وحده؛

فإياكِ يا صغيرتي أن تسوقكِ الأشواق لمزابل الهوى؛ فتحرمين قلبك لذة طهر الحب الأبدي، فالحب إذا أتى من غير طريق الزواج كثيرًا ما يعوج به المسير إلى هنا.

وتكمل قصتها وكأنما نحَّت العقل والنصح جانبًا لتتفرغ لأشواقها وآلامها التي تفرغ من كل شيء إلا منها فآه من تباريح الشوق لو تعلم!! تتمكن من الواحد منا وتلتصق به فلا تفارقه كأنها أنفاسه أو مادة حياته وهي وحدها كاتم أنفاسه ومادة تعذيبه، فتلازمه أبد الدهر ما دام حيًّا يتألم منها فلا يعد يُعرف إلا بها؛ فقد يفرغ المحب من الدنيا بأسرها لكن يبقى فيه محبوبه النائي عنه فوق الدنيا والأشياء كلها.

ولا أدري أنَّى لقلبها أن يحمل له هذا الحب الجنوني، ولا أدري أنَّى لقلبه الماكر المتلون بألوان كل قلب يقابله من قلوبهن ليكون كما يتناسب معه ومفصلًا خصيصًا على مقاسه، لا أدري أنَّى له أن يستحق حبًا كهذا الحب؟!

لكن يبدو أنها كانت تعشق تعذيب قلبها فزجت به في مهاوي الردى، وأصرت على أن تخالط أنفاسها أنفاسه فتركت نفسها ضحية ذكريات تنهش بقلبها وتفتك به وتهد أركانه وتأتي نيران الشوق عليه فلا تبقي ولا تذر، حتى بعد أن تركها ومضى في طريقه غير مبالٍ بها ولا بحرقة قلبها، ولا أدري متى يفصح القلب عمَّا طواه من الأسى، ومتى تكف عيناها عن هتك ستر الحنين؟!

وآه من تلك الآهات التي تحبسها في صدرها تتمدد وتتضاعف مع كل شهيق وزفير تزفره وكأنه أخر أنفاسها من الدنيا، ويحها من آهات تزداد وتتضاعف متزايدةً كلما زاد شوقها إليه حتى ضاق بها الصدر وما حوى، آه منها ومن أنينها الذي لو وصل إليه محملًا بتباريح شوقها إليه لجنى عليه وعلى قلبه الذي قسى عليها بالهجر فكان كالحجارة أو أشد قسوة، آه منها ومن أشواقها التي كادت تقضي عليها دون الوصول إليه!!

وكتبت دموعها:- ولم تقتلني أنت بقدر ما قتلتني ذكرياتك فلقد امتدت

لتشمل العالم من حولي بأسره لأنك وحدك كنت عالمي، فلم تعد ذكرى تقتل بل عالم وحشي اجتمع على قلب طفل صغير أعزل لا حيلة له ولا سبيل له للفرار، فيحاربنه حتى يدكونه دكًا، ويا لها من ذكريات وفية لك حد الرمق الآخرين؛ تفي بعهدها لك أنت، وتشعل عقلي أنا بك!!

فكل ما حولي باعث التفكير بك وأنك مرسله وكأن الله نفث روحك في الأشياء من حولي فتخيل إلي هذه الجمادات أنها أنت، وكذلك الأشجار والعصافير تغرد فوقها تغريدها بعض صوتك، وهيجان البحر الذي يشبه ثورتك، وانحسار مياهه الذي يشبه انحسار وجهك حينما وليت عني مدبرًا تاركًا قلبًا أنت كاسره، ودموعًا أنت مرسلها، وأشواكًا أنت وحدك زارعها.

ثوابي أنت وعقابي الذي نال مني أنت، راحتي أنت والوجع المسافر في دمي أنت، حريتي أنت وسجاني قاسي القلب أنت، دوائي أنت ودائي الذي تمكن مني أنت، حياتي أنت وحتفي الحتمي أنت، حبي أنت وكرهي المحبب أنت، حسنتي أنت وسيئتي الممقوتة أنت؛ فكيف السبيل لتوبة منك؟!

وتلاشيت كأنك لم تكن يومًا حبة القلب ومهجته، وتلاشيت أنت وتلاشت معك روحي، وتلاشيت أنت وكان آخر يوم لشروقي، وتلاشيت أنت ومرحبًا مرحبًا بغروبي، وتلاشيت أنت وأبقيت المسافات، ورغم كل شيء لا زال قلبي ينبض بحبك، ولا زالت ذكرياتك تفتك بعقلي المتأجج بك .. فأين المفر من ذكرى أحبة طعنوا ورحلوا؟! وأين إذًا ألقي بآلامي وقلبي مصاب بك وشفاؤه أنت؟!

أدليتك إليك بحجتي وقدمت لك أدلتي وأثبت لك صدقي وبراءتي، لكنك أصم أعمى فلم تسمع شهادتي ولم تر أدلتي فقط حكمت علي بالقتل هجرًا دون نظر في الحكم ورُفعت الجلسة، وفي الفراق تنتزع منا أرواحنا ببطء ونتلاشى شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى منا إلا فتات الذكريات.

فآه من الإخلاص معذبي وآه من الجفاء منجيك!! فقد أخبرني القوم ذات مرة أنه ثمة رائحة نيران تفوح من بيتنا يعلوها دخان يخترق مساكنهم حتى كاد يخنقهم، فلما رأوا أثر حرقها على عيني علموا أنه قلبي يشتاق، فماذا وصلك أنت؟! وما الذي علمته؟! أوصلتك الأشواك أم نيرانها؟!

تعلم ماذا نحن لا نختلف عن بعضنا كثيرًا؛ فكلانا صادق لحدٍ مميت، أنا صادق في الحب وأنت صادق في التظاهر بالحب؛ فالتقينا على أول باب الصدق وافترقنا عند أول مفترق في طريق إثبات الحب، أخفقت أنت منذ أن وطِئته قدمك وأكملت أنا وقاسيت تباريح الحب وحدي؛ فيا ليتني ما جازفت بقلبي .. ليتني ما جازفت!!

يقال أن الفراق قد يزيد المودة وقد يزيلها، لكن ما بالك تربوا بقلبي والآلام منك ومعك؟! وما بالك تمكنت من قلبي وكأنك ورثته؟! وإني لأتعجب لذاك السيل الذي ينجرف من قلبي كيف لا يغرقك؟! بل بت أنا نصف يكتب عن الألم ونصفي الآخر غارق فيه.

وكل آلامي منك كأنهن كل آلام العاشقين اجتمعن على قلب صغير لم يذق من الحب إلا عذابه، والألم يشعرك أن من آلمك قد مضى بسكينه وقد اقتطع جزءًا من قلبك، وأعظم جرم من جرائمه أنك لا تراه إلا هو، هو فقط، قابع في ثنايا قلبك الهش، ومتربع في كل ذرة من عقلك البائس، ومتوغل في كل ركن فيك، ومن اعتاد الألم للأسف لا يتألم.

تعلم ماذا .. لا حرج عليك بأن أهديتني كل معاني البأس، وأذقتني كل قوانين الألم بل وجعلتني لا أقوى على الاستغناء عنها إذ إني لا أقوى على الاستغناء عنك وقدمت لي طبقًا من أشواك شائكة وجرعتني كأسًا من عذاب مهين، ولا حرج عليك بأن كسرت قلبي وأنزلت دمعي وجعلت النوم لا يزور جفني، فما عدت أشتاق إليك إنما أشتاق لشيء منك، أشتاق لذلك الحب الذي غمر قلبك به قلبي

رغم أنه كان مكذوبًا، وأمَا إني قد أحببت ذلك المتصنع بالود، فقد أحببت شخصًا آخر، عرفته أنا ولم تعرفه أنت؛ فالمحب لا يتصنع، لا يرحل، لا يخذل، ولا يؤذي.

والآن قد انتهينا من حيث بدأنا لكن واحسرتاه قد خاضت قلوبًا دروبًا من الحروب لا منتهى لها رغم انتهائنا، حروبًا أنا الجاني فيها والمجني عليه؛ مزقت قلبي بسلاح حبٍ هو جرمي الذي يلاحقني وأفر منه وهو أعظم آلامي وأشد مخاوفي كصاحب الذنب يرتجف خوفًا منه ما إن عصى أو أطاع فهو أشد مخاوفه ولا سبيل للفرار منه إلا حبل رحمته سبحانه، هكذا أرجو ألا ينقطع هذا الحبل فأنتهي .. انتهينا لكن بالكثير من الآلام التي ما حسبت حسابها قط.

هل خلا المكان منا أم بات من أجسادنا خاليًا؟!

وهل مات القلب يائسًا أم بات من الأحبة هاربًا؟!

وهل ضاع الحلم ناكرًا أم بات برحيلهم ضائعًا؟!

وهل رحل الرفيق أم كان ظله وحده حاضرًا؟!

خلا المكان منا -وحدنا- ومن عبيرنا ما خلا

والقلب محتضر في الغرق يتوق رشفة للهوى

والحلم -آسفًا- قد ضاع من بين أيدينا في الثرى

والرفيق رحل وعلق روحه بروحي في الهوى

وبذكراه يحرق قلبي وبهجره عليه قد افترى

ويؤلمني أن مجرد تذكرك يؤلمني، لكن عزائي الوحيد في أني سأنسك ولو بعد حين هو أن القلب لا ينسى الصادقين المخلصين مهما تباعدت المسافات

ومهما قسو على أحبتهم وما قسوتهم إلا لإصلاح من أحبوا، ومن المؤكد أنك بعيد كل البعد عن الصدق ما أحببت وفي قسوتك أسرفت؛ فلكم تمنيت أن تكون صادقًا ملخصًا فتعذب مثلي لكني وحدي المعذب بالهوى والهجر؛ فالهجر بعد الحب على قلب المحب كأنه العمى الذي يصيب الإنسان بعد إبصار، فلا هو عمي عذابه ولا دامت عليه لذته، وفي الهجر يحيا واحد ليموت الآخر وفي الفراق يموت كلاهما ليحيا سبب تفرقتهما.

العريد الأحمق

كان شابًا وسيمًا حسن الطلعة والهيئة له من بهي طلة الرجال ما له لكنه ليس منهم في شيء يحسب عليهم لا فيهم، وينقص من شأنهم ولا يزيدهم؛ فلا يلحقهم إلا خزيًا وعارًا، يقدر مدى وسامته وأناقته بعدد النساء اللواتي استطاع باحتراف إيقاعهن في حبه، ولحماقته يحسب نفسه يسترق من شبابه اللذة والمتعة بنيل ما يحب ويشتهي وإذ بشبابه يسرقه وما يستلذ به، وإذ بقلبه يتهاوى في فتن الهوى شيئًا فشيئًا حتى يألفها ويتشربها، ويصير بعدها مسخًا من عمل شيطانه فيه.

وكان فيما رآه أهل مدينته أنه ما أفلتت من تحت يديه واحدة سواء داخل حدود بلدته أو خارجها، يوهمن أنه يحبهن بالتلميح أو التصريح، منهن من يراها ويلقاها ومنهن من عرفها اسمًا فحسب من خلال وسائل التواصل التي تفسد أكثر مما تصلح وتهدم أكثر مما تبني وكانت هي مما عمت به البلوى في زماننا هذا .. يحب من يعرف ومن لم يعرف وكأن لسان حاله "لن أخسر شيئًا ما دمت أستلذ بهن وأرتوي باهتمامهن وبخليع أحاديثهن" وما يعلم أنه هو أخسر الخاسرين قلبًا شريفًا ورجلًا عفيفًا؛ خسر شرفه وذاته ودينه، فما الذي يبقى له بعد ذلك؟!

تحكي واحدة من بين هؤلاء اللواتي خادعهن وكسر بقلوبهن والذي شدني لقصتها دون غيرها كم الخذلان الذي فيها لأنها سلكت لأجله طريقًا كرهت أن تسلكه، وزلت زلة كانت تجزم أنها من المحال أن تفعل؛ سقطت لأجله وتعذبت منه وبسببه، وهو لا يبالي بشيء وكأنه يتعمد ذلك، بل كأن قلبه كالحجارة أو أشد قسوة.

تقول:- كان يتعرض لي كما يتعرض الحلم للنائم يروح ويجيء يروح ويجيء وكأنه يود أن يلفت نظري إليه ويجذبني بمعسول حديثه أو نفاقه وادعائه إن صح التعبير، أو كأنه يود أن يتقن مدخلًا يدخل به إليّ، وما كنت أبالي بكل هذا الهراء وتلك الحركات الصبيانية.

وذات يوم تقدم إليّ بروح الشهم الشجاع الذي يدافع عن عرض البنات والمسلمين وهنا كانت الزلة الكبرى بأن بدأت أتقبله وبدأ بعد ذلك باهتمامه الكاذب واحترامه المتصنع يأخذ حيزًا كبيرًا من فكري، ومن ثم طغى حبه على قلبي حتى تقبلته وكان من المحال أن أفعل فمن قبل ما عرفت من الرجال إلا أبي وإخوتي، ولم يكن لي تعامل مع أجنبي عني أبدًا لكني وللأسف أحببته فتعذبت لأنني ما أحببت رجلًا.

فإن المحب الذي يتلاعب بالحب يدعيه ويروح ينفقه هنا وهناك على هذه وتلك ليس رجلًا صحيح الرجولة، بل فاسق ماجن يدفع بهن إلى الدعارة والفسق بأن يرضين بالنزول عن مراتب الشرف والفضيلة بأن تكون قريبة منه قولًا وعملًا، تختلس من يد الزمان بضعًا منه تقابله وتحادثه فيه وهم في بعد عن مرأى الناس على مقربة من مرأى الشيطان ونفخه وهمزه، يحرضهما على التمادي أكثر فأكثر حتى يوقعهما في محظور فيتمادين ويتمادين بذلك السم الذي ينفثه في فكر كل منهما حتى يهلكهما.

وتزول الرغبة فيها شيئًا فشيئًا حتى ينقطع حبلها من جذوره بعدما زال تمنعها عنه وبعدما تمتع بها فصارت بخيسة الثمن حقيرة وضيعة في نظره بعد أن تنازلت له عن كل ما تملك بأن قبلت أن تحبه في الحرام؛ فيعاقبها بأنها قبلت وأحبته، حتى وإن كان هو من ساقها إلى هذه الحقارة والضعة.

وما إن يتركها زاهدًا فيها كما زهد في اللواتي سبقنها، يروح ليبحث عن قلب سليم آخر ليفسده بارتسام حب وضيع خبيث عليه فيزل ليتألم بعدها بلا انقطاع؛ وحسبته المسكينة نهرًا من الحب فكشفت عن ساقيها، لكنه ما كان إلا لجة أكاذيبه يغرقها فيها ثم يولي هاربًا متبرئًا منها كثعلب فتك بفريسته ثم راح وتركها تقطر دمًا ولو أنه قتلها لخلصها من عذابها وبذلك يكون قد رحمها.

وتظل تلك معذبة به ومنه، ناقمة عليه إثر الظلم الذي أوقعه بها

وما تكاد تتعافى حتى تدفعها غريزتها إلى أن تثبت له أنها قادرة على الانتقام منه وأنها جديرة بالحب كل الحب؛ وإذ بهذا البرهان الذي تتحسسه لا يأتي بعقل ولا دين وإنما بعربيد أحمق آخر مثله يساويه تمامًا في مجموع عقله وفكره الذي يصور له أن الحياة ما هي تلذذ وتمتع بالحلال في الحرام، وتراه كما رأت الأول فتفجع فيه فجيعتها الأولى.

ولا شك أن الطريق الذي سلكه كل منهما كان خطأ من بدايته، عنوانه الحب وختامه الهلاك، موضوع فيه النار قرب الزيت فما يلتقيان أبدًا إلا ازدادت النيران اشتعالًا لذا حرمت الشريعة مخالطة الرجل للمرأة إذا لم تكن هناك ضرورة قصوى لذلك لأن مجرد الاقتراب من الباب يوجب حتمية ولوج الطريق فقد قال رسولنا صلوات الله وسلامه عليه "إنك إن تفتحه تلجه" والإنسان بطبعه مخلوق ضعيف قد تتمكن منه غريزته فيستسلم لها لذا وجب إقامة الحدود بينهما؛ فالمرأة ليس لها من جنس الرجال إلا رجلها فحسب، والرجل كذلك امرأته امرأته فحسب.

وإن هي لم تفطن طريق العودة وتحيد عن ذلك الطريق وتلبي نداء باعث الله في قلبها وتغسل بدموع الندم ذلك الدنس الذي لحق بشرفها وأخلاقها كانت سقطاتها تتولى كرة بعد كرة لا تكاد تبرأ من واحدة حتى تجني عليها أخرى، فتمضي بجسد بال وقلب متهالك معذب بمن أحب، محسوب مع الأحياء ظاهرًا وهو في عداد الأموات، والمخذول من حبيب كان صادقًا أشد الصدق في حبه إياه إما أن يكون وينتصر ويكون شيئًا ما كان ليكونه لو أنه ما خذل، وإما يعيش معذبًا في قصته لا يبرحها وتمضي الدنيا وهو لا يزال مقيمًا فيها معذبًا بها.

ويرى الأستاذ "أ. ي" أن صاحب القصة غبي مغفل فاسد العقل والدين، مريض أشد المرض بشهوته ولا شفاء له منه إلا بأخلاق أفسدها وعفة ما عرفها، يفرض خبثه على هؤلاء الفتيات اليتامى، يتامى الحب والاهتمام وضحايا علاقات الأهل المهشمة والإهمال؛ يوهمهن الحب وهو بعيد كل البعد عنه،

يحارب بالحق مع الباطل ليلبسه به، يحاول كذبًا وزورًا أن يلحق نفسه بمنزلة الشرفاء وليس هو من منزلتهم في شيء، يدعى الصلاح وهو أكبر المفسدين.

عربيد أحمق سكره ليس من خمره وإنما من شهوته التي يطلقها دون قيد ولا لجام يحد سطواتها ويلجمها بلجام العفة والشرف؛ فكلنا له قلب وكلنا نحب لكن ليس للجميع دين وخلق يأمر وينهى، يرشده متى ضل، يعرفه الحق من الباطل ويفطنه الطيب والخبيث، ويكون معه واعظًا أينما ولى أو راح.

وأذكر أنني أحببتها حبًا عظيمًا وكثيرًا ما حدثتني نفسي أن أحادثها وأصارحها حتى أزيل هذا الثقل الذي كان يلازمني ما لازمني حبها وأنا أحمل لها حبًا كحبي، أحادث الله بها في صلواتي وخلواتي أرجوه أن يكتبها لي وإن لم يكن الخير فيها لا يجعل الخير إلا فيها، وزاد المحبين من الحب لمن أحبوا أن يلتقوا بهم في الصلوات والدعوات والخلوات ويشهد الله أنه ما مضت ليلة إلا كان لها من هذا اللقاء أوفر الحظ والنصيب، وكان كل همي من الدنيا أن يكون اسمها معقودًا باسمي "حرم الأستاذ أ. ي" وأن تكون هي رفيقة دربي في الدنيا والأخرة مع الصديقين والشهداء والصالحين، غير أنه ما كان شيئًا أبغض إلى نفسي من أن أعصي الله فيها وأجعلها تعصيه -سبحانه- فيّ فأكون سبب مقته لها وسخطه عليها، أو أن أعذبها بحبي وبوحي لها فأنا لا أملك مفاتيح الأقدار في يدي ولا أضمن بعد ذلك أن تكون لي حتى وإن كنت أثق في ذلك تمام الثقة، وأردت العذاب لنفسي فقط لأدفعه عنها، فكتمت حبي حتى حقق الله مرادي ومنّ عليّ بسعادة الدنيا والأخرة، وذاعت قصتنا بعدها في أرجاء مدينتي وذقنا للسعادة والحب طعما ما كان لنا أن نذوقه لو أننا فتحنا للشيطان بيننا مدخل ليفسد علينا حبنا.

وتقول صديقتي الأستاذة "أ. م" أن بمثل هذا العربيد نشأ مسمى "ادعاء الحب" وأصبح معظم الفتيات -إن لم يكونوا كلهن- يتوجسن من الحب والزواج مخافة خداع الحب أو فتوره بعد الزواج،

لكن الحب الصادق الشريف الذي ليس له بابٌ إلا باب الزواج سكن ورحمة، حب تعلو عليه معاني الشرف والفضيلة ولا يعلو عليها؛ لأنه إذا علا عليها ما كان إلا سوادًا يسود وجه المرأة وعارًا يلحق بسمعتها.

ومثل هذا الجيل الطائش الذي يجهل تاريخ أمته علاوة على جهله أولى وأبسط تعاليم دينه، جيل لا يعرف الفرض من النافلة يعيش بأفسد الأحلام والأهداف إن عرف كيف يحدد وجهته في هذه الحياة ويضع نفسه موضعًا يرضي فضيلته لا حماقته، جيل يجهل الأمور على حقيقتها ومسمى الزواج عنده لا يربو على أنه حكم بالإعدام لا مودة ورحمة وحسن معاشرة، جيل لكثرة ما أوقفوا عقولهم ومكنوا من أنفسهم حماقتها تعبت عقولهم منهم وما عادت تطيقهم.

وكان لي صديقة حدث معها مثل ما حدث مع صاحبتنا هذه غير أنها وضعت في اختيار أعظم إما أن تخون الله في زوجة محبوبها وتفسد عليها معيشتها وتبوء به هي أو أن تكسب كل شيء دونه هو؛ فأفسحت مجالًا لعقلها تعمله وتحمي نفسها به من طيش عواطفها وإذا ما تمكنت منها مرة ما رأت نفسها إلا محل زوجته فكرهت أن توضع في موضعها هذا، أن تكون محل مقارنة غير عادلة وتكون هي المجني عليها فيها، ورأت أنه لا فائدة من البقاء في منافسة لا يكون الفوز فيها إلا خسة وضعة والخسارة خزيًا وعارًا، وهان عليها حبها من أن ترى نفسها قليلة أمام نفسها أو أن تكون عند الله من الخائنين وابعدت بفضائلها عنه وما رضيت أن تكون أقل من زوجة تحب وتحيا في النور.

القائلة المجرمة

لما هممت بكتابة "العربيد الأحمق" وكنت بالفعل قد أنجزت جزءًا كبيرًا منه خفت أن أكون قد انحزت لذوات جنسي في بيان الظلم الذي يقع عليهن وكسر الحمقى لقلوبهن في مراهنة كي يثبت العربيد أنه كبر وصار رجلًا يفعل ما بدى له، وأنه قد بات شابًا أنيقًا تتهافت قلوب الفاتنات على نظرة حب من عينيه الساحرة وكلمة معسولة من لسانه الخبيث الذي لا يعرف إلا الخداع والحماقة التي تصور له أن قيمة وجوده تحسب بعدد الفتيات التي ارتبط بهن وفتح لهن الحرام من أوسع أبوابه يلجون فيه بلا مخرج، وهؤلاء عددهن يضاهي عدد شعر رأسه.

غير أنه ليس من الرجولة في شيء وما كانت الرجولة يومًا إلا في المبدأ الشريف والسير وفق نهج الله بكبح شهوته عن كل حرام يشين طهر روحه وعفة أخلاقه حتى وإن لم يعيبه فيه المجتمع، ما كانت الرجولة بالتسكع في الطرقات بمغازلة هذه وتفصيل جسد هذه، وتتبع عطر تلك، وما كنت الرجولة إلا في مخافة الله في موطن قوتك وتمكنك من الحرام وقدرتك عليه كما جاء فيما رواه أبو هريرة -رضى الله عنه- عن النبي الشريف الأمين من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم " وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخافُ اللَّه "

وليلتها رأيت في منامي شابًا ما رأيته من قبل، قد أكل الحزن قلبه، واجتمعت عليه وحوش من الأحزان ثائرة ضارية تربط له كل الأحداث بآلامه منها وخداعها إياه وحبها الكاذب الذي كان بمثابة ضربة مخلب في قلبه، اقتربت منه وإذ بملامح وجهه شاحبة باهتة كلون حياته تمامًا، ما تراه إلا وتحسبه شيخًا هرمًا عجوزًا، ليس له من زهرة شبابه نصيب ولا نصيب له من الدنيا إلا الحسرة والخيبة.

سألته أن يحكي لي حكايته وكيف أودت به الأيام إلى هذه الحالة الرثة التي يرثى عليها وهو لا زال في مطلع شبابه، وبعد تنهيدة طويلة قال كلمة واحدة وما زاد عليها:- "مجرمة مجرمة"، وفصلت كلمته فإذا بها نهاية أليمة لقصة من قصص الحب الخداعات، واستيقظت بعدها على صوت المؤذن "الله أكبر الله أكبر"

وصوته الخافت يتردد على مسامعي "مجرمة مجرمة" فالله أكبر فيها وفي أمثالها.

وفي اليوم التالي ولحسن حظي وأليم حظ صاحبنا أقرأني الواقع بعضًا من صفحاته وأطلعني على بعض قصصه وأسراره، يحكي شاب قصته الشبيهة كل الشبه بالهرم الذي رأيته ليلة البارحة على اختلاف مصدر الجرم لكن الجريمة واحدة ومُؤدَها واحد وهي الرغبة في الانتحار وإنهاء حياته التي أفسدتها عليه صاحبته بمكرها وخداعها.

يقول صاحبنا فيها:- كانت فتاة مدنية ترى الحياة ليس بمنظور الحياة وإنما بمنظور الغرب حيث الحب الحرام حلال، والملابس الخليعة موضة، والعري حرية وتقدم، ومخالطة الرجل للمرأة اجتماعية وتحضر، حيث كل شيء في غير موضعه الصحيح البين الثابت، كانت جميلة المنظر، حلوة الحديث تخرج الكلمات من فاهها لا كلام بل عسل مصفى.

غير أنها كانت خبيثة ماكرة طائشة لا تحسب جمالها جمالًا ما لم يسحر بمفاتنها الشبان، ولا ترضى إلا أن تكون محبوبة من قبل كل ما يراها فيفتتن بها، كثرت عندها فنون الإغراء والتلون كالحرباء تلون جلدها لتتمكن من فريستها، وهذه كل فرائسها الشباب توقعهن بحبها فتعذبهن حتى تكاد تقتلهن بنكث عهدها معهم ويتوالى خداعها وخبثها، فترسم الحب على هذا وذاك.

أشيطانية هي تحمل الوسام الإبليسي مع مرتبة الخبث والدعارة، أم ماذا يسمى مجونها هذا؟! ولم هي مصرة على تعليق قلوب الشباب بها وتعذيبها لهم؟! ناقصة العقل والدين، مريضة مرض لا شفاء لها منه، وربما مجنونة مخذولة تود الانتقام من واحد بأن تعذب جنسه كله، لا أعلم كل ما أعرفه أنها قاتلة قاتلة؛ فلا شيء مهما بلغت قوة أسبابه يدفعها لمجونها ومرضها الجنوني هذا.

ولا ريب أن قلبها ما أحب واحدًا من أولئك العشرات بعدما خانها حبها الأول، فهو لا يعرف الحب ولو عرفه ما عددت الرجال فيه وما أجلستهم عرشًا

لا يسع إلا واحدًا، والعجب كل العجب منها ومن أمثالها كيف يودين بأنفسهن في هذا الطريق غير محمود العواقب، طريق الحسرة والخزي والندامة والعار؟!

ولا أدري كيف تساوم الواحدة منهن على دينها وشرفها وعرضها، وكيف يستبحن حرمتهن التي حرمها الله على الرجال جميعًا دون أزواجهن، وبمثل هؤلاء كسد الزواج وهُدمت الأسر، ونشأ جيل لا يعرف من التربية إلا المجون وقلة الحياء، جيل رق في قلبه الدين فلا يكاد يرى على جوارحه من أثره شيئًا، جيل التهبت به العاطفة، وانتشر فيه الفساد حيث يكون العري والإغراء بكل فنونه وألاعيبه، وصارت الأسواق والطرقات أماكن لعرض لحومهن لكل عابر لا أماكن لها حرمتها وآداب التواجد فيها والتعامل معها.

يقول:- علقتني وتركتني، وعدتني وأخلفت بالوعد، رسمت عليّ الحب وبعدما راحت تنقض الرسم، فلا أغمض الله لها جفنًا بعدما جعلت النوم لا يزور جفني، ولا جبر الله لها قلبًا بعدما كسرت قلبي، لا حرمني الله رؤيتها تعذب مثلما عذبتني، ولا حرمها الله مر الحياة كما جرتني مرها من كل حب وخزي، ولسلبها الله قوتها التي تفتري بها على قلوب من كسرت قلوبهم مثلي، عذبها الله بقدر ما جعلتني معذب بها وجعلت عذابي لا ينتهي إلا بالموت.

وبعدها ما سمعت من خبره شيئًا ويبدو أن رحمة الله مسته فأنهت آلامه بالموت، وما جنى عليه خذلانها بقدر ما جرى عليه حبه الأعمى الذي لو أبصر ما أحب غادرة ماكرة مثلها، ويا رحمة للمحب حينما قسى عليه قلب حبيبه، أين كنت؟! ويا قلبه على صاحبك كيف تجني؟!

رثاء ميت

ما قصدت في بهذا الرثاء سبق الأحداث ولا خيانة الزمان بأن أتهمه بما لما يكن منه من شأن تفرقة روحي وجسدي بعد، ولا كنت أحاول عمدًا أن أتلبس رداءً من الحزن هو في الأصل ردائي؛ وإنما حاولت أن أرسم مشهدًا يشهده الزمان على جميع المخلوقات دون أن يشهده المعني به.

وخيلت في نفسي أنه بإمكان وصفي بعد موتي كما عرفتني فحاولت رسم مراسم دفني وحفل تأبيني وأمر ما يلقاه الواحد منا أن يرحل غفلة وما أعد للموت عدته فيكون الموت أكبر مصيبة تحل عليه وعلى داره متخوف مما قدم ونادم أشد الندم على الخير الذي ما لم تجنه يداه أو الشوك الذي قد زرعه في صحيفته.

حاولت كذلك أن أسلك دربًا من دروب الأدب وهو أن يرثي الإنسان نفسه وهو لا زال حيًّا، وكيف له أن يعبر عن قدر ذاته بعد أن عرف ما لها وما عليها وكأنه يقيمها بعدما ولى نحبها، وكيف له أن يتخيل ثمرة غرسه الذي غرسه في حياته ليجني منه أحبته بعد مماته ولا ينسوه من صالح أعمالهم وطيب ذكراهم.

رثاء ميت

إلى تلك التي رحلت في فجر يومٍ غربت شمسه ولم تشرق، إلى تلك التي رحلت عاجزةً عن أن تداوي جروح أمتها الكلمى التي غرقت في دماء الأبرياء، وضعفت أن تسترد مكانتها وراء الشمس وقرب النجوم ووسط السماء.

إلى تلك التي كانت تبكي حينما تتأمَّل نجوم السماء وتباعدها، فتتمنى لو يتشبث كل نجمٍ بأخيه فلا يفارقه، إلى تلك التي انهالت دموعها حينما سمعت بالصدفة صوتًا في وسيلة مواصلات، يبدو أنه لأمٍ تسأل عن صغيرها المريض،

فبكت رغم أنها لم تكن تعرف صاحب الصوت لعتمة الطريق حتى أنها لم تحادثه، بل كتمت صوتها كي لا يسمع أحد أنينها؛ بكت تلبيةً لصوت الأمومة في قلبها،

ولتشابه ذلك الصوت مع رحمة القلب لكل من كان له قلب، وربما لفرط إحساسها الذي يجعلها تبكي أمام مشهدٍ سنيمائي لأبٍ يحتضن ابنه بحرارةٍ بعد مرارة فراقٍ دام عشر سنواتٍ.

إلى تلك التي كانت تعشق القراءة وتذوب في التفاصيل، وتعيش مع كل كلمةٍ يخطها الكاتب، وتحلق في سماء العالم الذي يجسده أمام عينيها بعبقرية الأداء، وروعة التصوير، إلى من قالت لفرط إعجابها بصاحب "وحي القلم" أنها مجنونته، وأنها لن ترضى إلا بمن يشبهه، إلى تلك التي تفقد جل طاقتها وهي تقرأ لصاحب "أرواق الورد" فقط لتعبر عن هوسها بعظمة فلسفته، وعمق خياله، وصدق تعبيره.

إلى تلك المخبولة بحب الحيوانات إلى ذلك الحد الذي يجعلها تداعبهم وتتغزل فيهم، إلى تلك المهووسة التي صنعت عالمًا خاصًا بها وبما حولها من جمادات تطلق عليها أسماءً خاصةً من بحر لغتها الخاصة بالبراءة والحب والطفولة والمزاح، إلى تلك المجنونة التي كانت تطلق أصواتًا عجيبةً كأصوات صغير الفرس، وأحيانًا أصواتًا لا معنى لها فقط لتعبر عن فرط طاقتها، أو غاية سعادتها، وأحيانًا قمة مكرها وعظم حزنها، ولتزيح بهذا الهراء عن عيونها الدموع المتزاحمة فيها، فلا تظهر ضعفها ولا ألمها؛ لأنه لم يكن ليفهم أحدٌ فرط حساسيتها، ولا ليقدر صدق مشاعرها؛ كانت تراوغ حتى لا يُرَى أنها تبالغ.

إلى تلك التعيسة التي قالت "ومن أعظم خيباتي أني لم أستطع التعايش مع هذا العالم فانغمست رغمًا عني في عالمي الخيالي الذي كنت أجسده في كتاباتي، وأرسم معالمه بمبادئي وأخلاقي؛ فلا يفسد بقوانين البشر الظالمة، ولا موازينهم المختلة"، إلى تلك البائسة التي أخذت نقيض أساسات حياةٍ عاشتها لتبني بها حياةً كانت تتمنى أن تحياها.

إلى تلك التي قالت "لله الفضل والمنة في أنه جعل من أعظم انتصاراتي

أن حافظت على نقاء قلبي كما خلقه الله، وبإذنه سأذهب وألقاه على نفس ذات الحال"؛ فلم تحقد ولم تبغض حتى من آذوها، بل كانت تدعو لهم بالصلاح والخير والمغفرة بالقدر الذي كانت تدعو به لنفسها، وكأن الكره ليس من نواميس قلبها ولا من قوانينه.

إلى تلك التي كانت تهتم بمن حولها، وتروي أرواحهم العطشى للاهتمام والقرب، وتشبع أحزانهم الجوعى للمؤاساة والاطمئنان، وتجبر كسورهم المفتقرة للجبر والحب، شأنها شأن الأم الحنون لا تعرف غير أنها تمنح وتحب وتحنو، كانت تعطي ما كانت هي تحتاجه، وما كانت تنتظر أن تأخذه؛ لذا أعطت كل شيء؛ لأنها لم تنل شيئًا ممن انتظرت منهم شيئًا، بل الحياة هي التي نالت منها ومن ضحكاتها، ورغم هذا كانت ضحكاتها تدوي المكان، وابتسامتها لا تفارق ثغرها كانت بمثابة هدايا تبهج بها القلوب، وجواز سفرٍ إليها، فقامت في قلوب الجميع، لكن كان كل ما يعنيها ويؤلمها ذاك القلب الذي لم تظفر به يومًا؛ لأنه كان قلبًا لا يعنيه الحب، ولا يهمه القرب.

إلى تلك التي كانت تغضب سريعًا، وترضى سريعًا بأقل كلماتٍ وأصغر جهد، إلى تلك التي كانت تشيط غضبًا لرؤية ما حولها فوضاويًا يثير في النفس غضبتها ويورثها عدم الارتياح، إلى تلك التي كانت تخلق في اللامتعة متعةً ساحرة، وفي اللاسعادة سعادةً باهرة، إلى تلك التي كانت تهب ثورة غيرتها للرؤية من تحب بالقرب من غيرها، إلى تلك التي أحبت أرواحًا وقلوبًا لما يحن لها بهم اللقاء حد الهيام.

إلى تلك التي كانت تتعامل بالبساطة وتفهم التعقيد، إلى تلك التي كانت تبدو سطحية وما بداخلها أعمق من المحيط، إلى تلك التي جمعت ما بين التفاهة والحكمة، وعاش قلبها الطفولة والأمومة، إلى من عشقت الغموض وأحبت الشفافية، إلى من جمعت بين الشيء وضده، وعرفت متى يؤدي كل دوره ويأخذ كل منهم حقه.

إلى ذاك القلب الذي نبض عمرًا مديدًا بالحب، إلى تلك الروح التي عاشت تجاهد ولم تمل المجاهدة، وخسرت أشواطًا من حروبها وكسبت أشواطًا، إلى تلك العينين اللتين تبثان حديث القلب بثًا مباشرًا فلا تكذبه، إلى ذاك اللسان الذي لم يكن ينطق إلا بما يحب أن يسمعه، إلى تلك التي كانت لا تفعل إلا ما تحب لها أن يُفعل، إلى تلك التي قالوا عنها "أميرة القلوب"، إليكِ يا "أنا" يا من دُعيتِ "أنتِ" وبتِ في المقابر بين الأموات "هي": لروحك من الله السلام.

رسالة إلى ميت

إلى تلك التي قالت أول ما قالت حينما جمعنا سقف واحد وعشنا بقلب واحد وربطنا رباط واحد "إني أحببتك قلبًا وروحًا قبل أن ألقاك شخصًا وجسدًا، وإني -وربي- لهمت فيك هيامًا حتى خفت أن ينتهي عشقي قبل أن أراك؛ فلا أجد في قلبي ما يروي قلبك، ولدرجة أنهم رموني بالجنون لما أحببت من لا أعرفه ولا حتى من قبل رأيته، لكنه القلب -يا حَبة القلب- لا يُسأل عما يفعل، ولا يجادل في من أحب وأسكن".

إلى تلك التي كتبت في حبي القصائد ورضيت مني بـ "إياكِ أحب"، إلى تلك التي قالت "لن أتركك حتى لو أردت أنت ذلك؛ فسنظل معًا في السراء والضراء روحًا لروحٍ، وقلبًا على قلبٍ، وجسدًا في جسد، تحملني إذا لم تحملني القدم، ولا تنساني بعدما أصير إلى العدم، وأما أنا فسأحفظ سكناك في قلبي حتى وإن ضعف السكن، وسأكون لك الملجأ إذا خانك الوطن".

إلى ذلك النور الذي أضاء عتمتي، وأشرقت بابتسامته معالم وجهي، إلى من كانت أمي فتحضنني، وكنت صغيرها فتداعبني، إلى من كانت أختي فتنصحني، وكنت أخاها فتطمئنني، إلى من كانت زوجي فترعاني، وكنت زوجها فتؤنسني، وإلى من كانت لي الحياة؛ فحييت معها أحلى حياة وكأنها جنة الله على أرضه.

إلى تلك التي كانت تعشق الهدوء وتصرخ فينا بجنونها الذي يزيدني في طفولتها وحيويتها غرامًا وحبًا أن "اهدؤوا" لتحدث هي وصغارنا صخبهم المميز بل وتشركني معهم، وكأنها مع أطفالي طفلة؛ فلا يميزها عنهم سوى ذلك العدد الرمزي من السن الفارق بينهما، فرغم مجريات الحياة القاسية ورغم كل شيء كانت لا تزال تحافظ على تلك الروح -روح الطفولة- في وسط ما ملأ قلبها من أمومة.

إلى ذلك الحضن الذي آواني وهدأ روعي فأنساني الهم والعناء، إلى ذلك الوجه الوضاء وكأنه النجم اللامع في وسط السماء، إلى تلك العينين السوداوتين اللتان تنسيان النفس همومها وغمومها، ويجعلان العقل يسبح في ملكوت الحب، يتحدثان وكأنهما يطلبان العشق والقرب، إلى تلك اليدين اللتين طالمًا دفعتا عني أحزاني، وطببتا جراحي، وداوتا آلامي، وكانتا في يدي طوال مشواري وفي كل أيامي.

إلى من كانت نهري الذي يرويني بالحب، وشمسي التي تمدني بالطاقة، ودوائي الذي يداوي آلامي وأسقامي، إلى نجمتي التي زينت سماء قلبي حينما سكنت فيه، وما إن رحلت ذبلت روحي فلا ماء يرويها، ولا طاقة تكفيها، ولا دواء يداويها، وباتت حياتي بعدها باهتةً ولا لون فيها.

*هذه رسالة من زوج إلى راحل بالموت لا يرجع، أحضرتها لمناسبتها لموضوع الرثاء السابق."

إلى تلك التي أوصتني بأمي قائلةً "أمك أمي وفرحها يفرحني، وحزنها يحزنني، وإرضاؤك لها غايتي قبل أن يكون غايتك، لأني أدرك جيدًا معنى كلمة "أم" وأقدر قدرها الذي منحه الله إياها، وأعلم تمام العلم أن رضاها من رضا الله، ولأني أحبك، لا أريدك -وربي- إلا برضاها ورضا الله فائزًا"

إلى ذلك العماد الذي كنت أركن إليه وقت الشدة، ويتكئ عليه البيت لحظة بلحظة، غاب العماد واختل في البيت ميزانه، وغاب الحضن فرُجَّت أركانه، إلى ذلك القلب الذي سكنني وسكنته: عاتقي بدونك لا يحتمل لأنك كنت قوتي وطاقتي ودعامتي، وبات قلبي بعدك أسير الحزن والخوف والشقاء لأنك وحدك كنت سعادته ومأمنه وراحته من كل عناء.

إلى زوجتي المصون التي رحلت فغربت مع رحيلها شمس حياتي ولم تشرق، وذبلت زهرة عمري ولم تزهر، وتاهت خطواتي بعدها وعليها لم أعثر، وهاجرت البسمات منذ رحيلها وأقسمت ألا تحضر، بربك أخبريني يا فلذة كبدي وقرة عيني ومهجة قلبي كيف لقلبي أن يسعد بعد رحيلك، وكيف لروحي أن تقوى على العيش بعدك، وهل للنعاس أن يزور جفني، وهل للبسمات أن ترسم ثانية على ثغري؟!

كلا -وربي- فلا ولن أطيق العيش بعدك، فليت الموت تخطاكِ إليَّ، ويا ليت ما أصابكِ وقع عليَّ، ويا ليت روحي تشبثت بروحك فخرجتا سويًا، إليك يا حياتي: ما عدت أنتظر بعد رحيك سوى مماتي فلعلي في جنان الخلد عند مالك الملك بإذنه ألقاكِ، وحينها نكمل المسير، وسويًا في جنة الرحمن نسير، وإلى ذاك الحين تقبلي قُبلاتي على جبينك الوضاء، ولروحك من الله السلام.

وحيد يا أمي

إلى تلك التي اختلت بي أيامًا وشهورًا وسنينَ، -دون كل البشر- كانت تشاركني تفاصيل نهارها، وتسامرني في ليلها، مرة تبث لي شكواها، ومرة تغمرني بسعادتها، تحادثني في كتاباتها وتفاخر بي بين صويحباتها، تأمرني وتنهاني وتنصحني، رغم أنها كانت دون الثامنة عشر من عمرها، لكنها كانت تعرف عن الأمومة مبتغاها، وتحقق من متطلباتها أسماها وأعلاها.

إلى تلك الجنة التي حوتني في أوسع غرفها تسع مشقة، تتلو على مسامعي التي ما كانت تمايزت بعد القرآنَ فيحلو بطيب تلاوتها يومي، تحادثني وتداعبني وتردد على مسامعي الذكر آناء الليل وأطراف النهار، إلى تلك التي عرفتني أهلي قبل أن أعرف للدنيا لونًا إلا لون سمائها، ولم أسمع فيها صوتًا إلا دفء صوتها.

***وهذه رسالة أخرى كتبها ابن وحيد تعيس بعد رحيل أمه.**

إلى تلك التي نسيت آلامها حينما نظرت لي مبتسمةً والدموع من فرحتها قد تزاحمت في عينيها يوم أن خرجت من رحمها صارخًا باكيًا فلم يُهدئ روعي إلا حضنها، إلى تلك التي أرضعتني أربعًا وعشرين مشقة الحبَ والحنان من لبنها وعذب حديثها العسل المصفى.

إلى تلك التي سهرت الليالي تداوي وتواسي وتطبطب، إلى تلك التي غرست فيَّ حب الله وحب رسوله وصحبه وآل بيته الكرام، إلى تلك التي ربتني على القرآن وتعاليمه، وعلمتني كيف أحيا بالعزة والمبدأ، وكيف أنتصر لأمتي وأغير على حرماتها ومقدساتها.

إلى تلك المدرسة التي علمتني معنى الحياة، بل جعلتني أحيا أسمى معاني الحب والطيبة والحنان والحياة فيها هي وحدها، إلى تلك التي لم تكن لتنسى يومًا قط أن تقبلني قبل ذهابي إلى مدرستي حتى بعد أن صرت طالبًا كانت تقبلني وأقبلها، فأبدأ يومي وأنا في غاية السعادة والرضا، وكانت توصينني دائمًا بأن أميل وأنا في طريقي على جدتي حتى أطمئن عليها وما إن كانت بخير.

إلى تلك التي حضنتني حينما قارنتني إحداهن بابنها قائلةً: - "إن ابني أفضل من ابنك" فردت عليها دعامتي وقوتي قائلةً: - "هذا ابني لا يقارن إذ إنه بطل في عيني، ومعايير الأفضلية كلها قد جمعت فيه، لكنها ربما اختلت معانيها لدى حضرتكِ أنتِ"

إلى تلك التي خطت معي أول خطواتي في الحياة، ونحو الله، وبعدها علمتني كيف أشق نحو الله طريقًا لا يراني في أحد، إلى تلك التي غرست فيَّ كل ما يعينني كي أكون

سوي النفس، سليم الفكر، رحيم القلب، شديد البأس، وكنت في حضرتها مقيدًا بالتعاليم حرًا طليقًا بها.

إلى تلك التي كتبت لي عند مرضها وبكت وبلت دموعها الورق، وأبكتني وأبكى ألمها القلم لمجرد أنها فقط تخليت أني سأعيش وحيدًا بعد رحيلها .. وها أنا ذا وحيدٌ يا أمي رغم كل من حولي من البشر، لأن كل البشر بدونك لا يعنوني في شيء؛ ففيك وحدك كانت تكمن سعادتي ووحدك كنت عالمي.

إلى تلك التي شدت على يدي حينما كانت تودع الحياة، بل حينما كانت الحياة تودعني أنا، قائلةً: - "أي بني تركت فيك ما يكفيك مؤنة المسير، وإلى غير طريق الله والجنة فلا تلتف ولا تسير، وهذا أبوك اصطحبك وعلمك ورباك، فكن له أنت الصاحب والمعين والولد، وإنه ليشق عليَّ أن أتركك، لكنها الحياة -يا حبة قلبي ومهجته- أيام ونمضي جميعًا؛ فادعُ دائمًا أن يحسن الله بيننا اللقاء، وكما عشنا في الدنيا سويًا نحيا في نعيم الجنة سويًا، وإنه ليشق عليَّ أن تنساني بعد موتي، لكن إذا كنت ستتذكرني وستعكر دموعك صفو ليلك، وتسيل على خديك الوردي فلا تتذكرني"

إليك أمي: سامحيني فقد عصيتك مكرهًا، وكيف لدموع عيني التي باتت تسيل بعد رحيلك سيل العرم فلا شيء يوقفها ألا تسيل وفيك كانت فجيعتها الكبرى، وكيف لليلي ألا يُعكر صفوه وقد باتت أيامي كلها بدونك ليلًا وحشيًا بهيمًا.

أمي: كلماتي تعبر عن ألمي لكنها لا تصفه، إذ إنه لا يوصف بل يقتل، يقتل فقط، وأنا أود أن ألقاك فرجوته أن يقتلني، وإلى أن يحنو عليَّ بالقتل، وينجز الموت فيَّ وعيده، بثي فيَّ شذى عطرك، وضميني لقلبك؛ فإن قلبي يرتجف، وجودي عليه بنظرة منك حتى يطمئن لحين أن يلقاك، ولروحك يا كل الخير من الله السلام.

على هامش الحب

«على هامش الحب» حسب القصة التي رواها صاحبنا عن شدة حبه وولعه بمحبوبته لا يكون هذا العنوان مناسبًا لموضوع حديثنا، لكني وفيما أعرفه من حقيقة الحب وطبيعته هذا أنسب عنوان يعبر عن قصته، حيث أنه إذا لم يكمل الحب طريقه للنهاية ما كان حبًا، كسباق إلا لم تربحه كله خسرته كله فتكون كأنك ما خضته منذ البداية، وبالأحرى إذا بهت الحب وتلاشى مع الزمان وضعف فلا يصح أن يطلق عليه مسمى الحب، وإذا نسي المحب محبوبه بحبيب آخر فما أخذ الأول من قلبه موضعًا.

ونظرًا لصغر سني وبحكم العزلة التي فرضت علينا ما رضيت يومًا عن خبرتي بالحياة، فالحياة كما قالوا قديمًا مدرسة لكل من لم يتعلم، وكل متعلم لا بد له من مدرسة أي لا بد له من الاستماع لأحداثها والتفتيش عن أسرارها، فهي صندوق عملاق مليء بالحكايات والأسرار التي لا تنتهي، لكنها لا تكشف عن أسرارها لكل عابر بهذه السهولة، بل تأبى إلا أن تطحنه بين رحيها حتى يخبر بنفسه ويعاين الأشياء على حقيقتها بحبة عينه.

فسألتهم ذات مرة على حسابي الخاص أن يقصوا علي قصصهم ويزيلوا الأستار عن جروحهم وآلامهم فلعل أحدهم يجيد بمبضعه أن يداويها، أو أن ينتهي سرد المشاهد بدواخلهم فيستطيعون الخلاص من هذا العرض السخيف الممل الذي سئموا من متابعته كل ليلة حينما يزورهم الليل باكرًا فينخر في حقب الذكريات، وأضعف الإيمان أن يرسموا خريطة الطريق للعابرين بعدهم حتى يتجنبوا عثراتهم وسقطاتهم.

وكانت هذه القصة من بين المصارحات التي جاءتني، يقول صاحبها أنه كان يحبها حبًا عظيمًا عجيبًا ليس كباقي الحب؛ عظيمًا فما ضعف ولا وهن مع الزمان وتصارع الأحداث والأيام ولا هزه بطش بعض العادات والتقاليد، عجيبًا لأنه كما حاكاني كانت تكبره بكثير بل وتزوجت غيره وكانت ذات أبناء؛ وحيثما تحب يُفقد العقل والمنطق، وعلة الحب الأولى في كل زمان ومكان -دائمًا وأبدًا- أنه أعمى أبكم أصم، أينما وقع تقع معه كل القوانين إلا قانونه هو؛ فلا يعود ينظر للعقل ولا للعادات ولا تقاليد ولا يهم السن ولا تقاسيم الوجه والجسم، لا شيء أهم من أن نبقى مع من نحب.

يقول أنه محال أن يحب قلبه قبل عقله فيسير في ضباب لا معالم فيه ولا نهاية له وكل الحسرة والندامة معه، لكنه ما يعلم أنه إذا أحب الواحد منا سقط القلب والعقل معًا ويبقى الدين ليصحح هذا المسار ويوقظ كل منهما ويضع فيه معناه الصحيح الثابت وهو أن نحب بقدر تحت راية الدين والعقل لا فوقهما فإذا غاب أي منهما فعلت الحماقة فينا فعلتها، وربما جن المحب بمحبوبه لا جنون حب لطيف وإنما جنون طيش وهوس وحماقة.

*هذه هي القصة الوحيدة التي أتت من على أرض الواقع وغير ذلك كل القصص كانت من مخيلة الدكتورة وفكرها ورؤيتها والتي تشف الواقع وليست عنه ببعيد".

ويحدث أحيانًا أن تكون هناك في قلبك أحاديث يحرم البوح بها لقداسيتها ولتفادي الكثير من الآلام التي قد نحصدها لو أننا اخترنا طريقًا غير طريق الحب الشريف الطاهر، وصاحبنا لورعه وقوة قلبه على تحمل كتمان حبه وصدق محبته لها ما اعترف لها أبدًا بحبه إلا حينما راح يطلبها لقلبه وبيته بعدما انفصلت عن زوجها الأول يقول:- يعلم الله أنه ما كان مني إليها شيء وأعظم ما أتيته إليها أنني أسكنتها قلبي وما مضى يوم إلا وقد كان فيما بيني وبين الله أحاديث عنها وكيف تمكنت من قلبي، وما استطعت أن أصرفه عنها فالقلب لا يخادع؛ فإذا ما حاولت أن تصرفه عن من يحب ما كان ميله إلا إليه، وكلما حاولتُ أن أفر منها جاهدًا لا أجدني إلا في أحضانها مستلقيًا، ولو أن قلبي مزق أشلاء وبعثر في بقاع شتى كي ينتزعوا حبها منه، لكانت قوى نفس ذات الحب تجمعه بقواه الساحرة.

اعترفت لها بحبي وأني أريدها ولا أريد سواها وأني سأواجه العالم بأثره من أجلها وسأكون لأبنائها الأب الأمثل وأضعهم في عيني ولن أفرق بينهم وبين أبنائي فيما بعد، لكن لم يكن هناك بعد فقد رفضت الزواج منه، رفضته لتتزوج بشخص بآخر، وهنا كان لساني حالي لو أنني مكانه سيكون:- كنت أود أن أرى الحب في عينيك لكن لا أدري لم أراني قد عميت مبكرًا؟! فما اختارته يعني ما أحبته، رغم أن كفاحه لأجلها يجعله جدير بأن يستحق، لكن ربما هي التي لا تستحق، ورغم كل هذا يكره أن تذكر بسوء .. عجيب أمر قلبه!!

وما دامت آلام المحب من محبوبه ما استثقلها ولا تأفأف منها يومًا، وما عاش حياته التي هي في أصلها أشبه ما يكون بالموت إلا مستلذًا بها؛ مجنون ورب الكعبة؛ إذ إنه يرى مادة خلق الآلام فيه هي وحدها مادة صنع المتعة التي يسترقها من يد الزمان، وكل محب معذب ما دام يرضى أن يعذب بمن يحب، وهو مريض لأنه معذب ولا يزال يحب.

وفي عالم الحب لا زلنا صغارًا نكبر فقط إذا ما مسنا عذاب نتجرعه قيحًا ودمًا عند أول لحظة شوق لمن نحب، فننضج بعذابه أكثر مما نستلذ بمتعته، ويفقد المحب محبوبه فيخلف له من بعد هذا الفقد كل معاني الحزن والألم، ذاك الحزن الذي أرسله هو وحده، وذلك الألم الذي لا شفاء منه إلا به.

وأن يهجره يعني أن يعيش فيه فيعذبه فيزداد له حبًا كلما ازداد به تعذيبًا؛ حالة عجيبة يحياها القلب والعقل معًا لا تفسير لها وكل الغموض فيها، غموض عيبه أنه غموض وقمة المتعة والإعجاز أنه لا يزال غموضًا رغم الحياة التي اقتسمها مع قلبه وعقله لطيلة المدة التي مكثوها معًا.

والمحب الذي هجره حبيبه كالهائم في الصحراء في ليلة مدلهمة لا يعرف الطريق الذي يؤدي إليه؛ لا لشيء إلا لأن كل الأشياء تناديه إليه؛ صوت واحد راعد في أذنيه أينما ولى في جهة ما كان صوت يخترق مسامعه إلا صوته هو، ولا تصور الأشياء لعينيه إلا صورته هو؛ يراه في كل ما حوله، في حركاته وسكنات كلما غدا أو راح.

وإذا أنت أردتني أن أحدثك حديثًا يشبه أحاديث الروايات وأختم لك بختم نهاياتها التي كثيرًا ما تكون في جل الأوقات سعيدة ومنصفة حسب ما يشتهيه القارئ، وحسب ما تميله عليه طبيعة الكاتب كي يغري القارئ ويجتذبه نحو مادته التي يقدمها، فإني سأكون حينها كالتاجر الذي يغش في بضاعته حتى يبيعها.

والكاتب ليس بتاجر يتحايل على صاحبه حتى يحوز رضاه، بل فنان يرسم ويبحر في عالم الخيال ويبدع، وإذا ما أراد أن يعبر عن الواقع عبر دون كلف منه ولا مبالغة، بل يرسم بكلماته التي تصنع أثرها على القلوب قبل الأسماع الواقع متمثلًا في لوحة تكاد تتحدث لفرط السعادة الكامنة فيها أو الحزن الذي كاد من فرط الألم يتحدث.

ولا ينظر إلا بأدق مناظير الحياة ليحلل ويدقق ويعبر فيبدع ويؤثر؛ فملامسة الكاتب للأشياء وفهمه للحياة فهمًا يعبر عن معاني الألم واللذة فيها حق الفهم والتعبير يختلف عن ملامسة باقي البشر وفهمهم لها؛ فهو يبث في الحياة من حوله حياة تشبه تلك التي ارتسمها لنفسه غير أنها ما كانت إلا خيالًا يعبر وبجدارة عن واقع يكون أكثر ما يكون مؤلمًا يهدم أكثر ما يبني، تتحطم عليه أحلام البسطاء كأمواج البحر تصطدم بصخور الشاطئ فتهدأ وتركن وتسطر تاريخ نهايتها، واقع يأكل من أحلامنا وطموحاتنا وسعادتنا ولا يشبع.

لكن صاحبنا قوي الإيمان، واثق في الله، مطمئن لحكمه، يقول:- لا شك أني خسرت حب عمري والذي كتمته لسنوات فتألمت كثيرًا لذلك، لكني رضيت بما قدره الله وأيقنت ظنًا مني في حسن تدبيره أن الخير كل الخير فيمن سيختارها الله لي وليس فيها، والحب لا يعني أن تحصل بل أن تُسعد.

ومن الحب تضحية لا يعلمها من يتهمونه بالقتل، وفي الحب عذاب لم يذقه إلا من قاسى البعد، وما بعد الحب -إذا كان حبًا صادقًا- لا يكون إلا الحب؛ فمحال أن يضع المحب محبوبه موضع كره في قلبه بعدما كانت كل مواضعه في قلبه كل الحب، الحب فحسب.

حكاية الوردة

إن من أعظم ما يقاسيه المحب أن يكتم بقلبه جمرات حبه وشوقه عمن يحب فإما أن يذوب من فرط لهيبها وإما أن يحترق ويذهب هو وحبه رمادًا يدفن في التراب آخذًا معه آلامه وأسراره، تاركًا وراءه سر الشيء الذي كان يعانيه "الحب"، وما يكون هذا إلا بمكر محبوبته وجنونها في أن تعذبه حتى وإن كانت تحبه، ولا أدري ما السر وراء كتمها وكيف تطيقه؟! ولمكرها تنظر إليه وكأن عينيها تقول له "أنا وحدي".

ومن وجهة نظري كأنثى أنها تذوق متعة بالغة حينما يُقرأها الحب من عينيه، وتسعد سعادة غامرة برؤية ولع محبها بها، وهي ما تود إلا أن تكون سعيدة فتفرض عليه إسعادها حتى وإن كان إسعادها هو مصدر تعذيبه؛ إذ إنها لا تراه تعذيبًا بل كفاحًا في سبيل الحب، وما الحب إلا عداوة تأتي متلبسة لباسًا ناعمًا أنيقًا تجيء من قلب المحب إلى قلب محبوبه متلطفة على أنها حب.

يقول:- أحببتها حبًا عظيمًا وما كانت تبالي، تشعرني مرات أنها تحبني وتستطيع بدهائها ومكرها الذي يعذبني لكني أحبه أن تجعلني أحبها حتى وإن كان قلبي بكرهها يتعبد، ومرات أخرى تشعرني أنني لا شيء بالنسبة لها، فلا أراها إلا الغموض في معناه الخفي، والسر في أصله الغامض، أراها متناقضة رغم وجهتها التي اختارتها لنفسها مع نفسها في أمري وأمر قلبي وأنا لا أعلم، يا للعجب من أمرهن وأمر قلوبهن وغريب تفكيرهن!! والآن وقبل الآن لا أفهمها .. لا أفهمها.

وأهديها وردة فتبتسم ضاحكة وهي في جنة حيائها وقد تورد خديها ولمعت عينيها، فتتحسس نعومتها بيديها الناعمتين، وترتشف رائحتها بشفتيها الورديتين

في رفق وقد أمطرت السماء قطرات ندية لؤلؤية تشبه حبات عينيها الكحيلتين، وأنا ماثل أمامها أتأملها آية إبداع وجمال وجلال من آيات الله

فلجمالها حث مغناطيسي عيناي لا تقاومه؛ وتستحي فتزداد جمالًا وجلالًا وكأن الحياء ضيف طويل المقام في وجهها الوضاء، أتأملها وعيناي تكشفني وتبث لها ما فِي قلبي بثًا، وهي بعد هذا كله لا تعلم أني أحبها، وأني ما أَهديتها الوردة مجردة من معاني الجمال إلا لتبث هي فيها من معانيها وتعطرها من بعض العطر الذي عطرها الله به.

أحببتها وأنا الذي أود أن أكون حرًا أعني أنني لا أود أن أحب لأني أشعر أن المحب لمسلوب الحرية أمام محبوبه، فكره مقتصر على سبل إسعاده، وسعادته هو رهن نظرة حب من عين حبيبه، ويا عقل المحب أين ولى بك محبوبك، ويا محبوب المحب كيف سلبته عقله؟!

وأقول في هذه الحسناء إنها لرقيقة القلب إلا حين تشتاق إليّ فيقسو قلبها عليّ فلا تفعل؛ فتغلب قلبها وقوى الحب والشوق الذي لا يغلب، وتسبق كل العاشقين وتسطر لنفسها عليهم فوزًا من نوع آخر في نفس ذات الحرب؛ فتسبق بذلك كل نساء العالمين إلى قلبي بقدر ذلك السبق بل يزيد؛ فأكرهها أعني لا أحب سواها، فأرقى بذلك الحب إلى درجة الوجد والتعذيب فأكرهها، أعني لا أتعذب إلا بها ولا أحب سواها.

وتراها تحسبها الحسن ذاته، فسبحان جل من سواها!! فما هو إلا أن ينظر الناظر وجهها الوضاء حتى يسكن ناظريه فلا يراه إلا هو متلبس كنه الكائنات والجمادات من حوله، وحتى يمتزج بقلبه فيكون هو أحب مخلوقات الله إليه وأبلغها معنًا، يفوق في وصفه ألوان البلاغة كلها وأعظمها أثرًا في نفسه، ويرنو بمعانيه التي يحملها في ملامح ناعمة هادئة على منزلة تأثير السحر على المسحور.

ورأتها بعد زمن بعيد، بعد ما يقارب شهرًا كاملًا أي حوالي سبعمائة شوقًا

أعني ساعة، وبعد سبعمائة حلمًا، وبعدد ذلك من رسائل الشوق التي لا تنهي، القينا عند مفترق الطريق فتوقف الزمان عند لحظة التقائنا وازداد خفقان قلبي عند نقطة توقف الزمن وسكون المكان حيث لا صوت إلا صوت قلبي ولا حديثًا إلا حديث عينيها، ولا لونًا إلا لونها البنفسج المفضل بحبها، المميز بجسدها.

وما إن اكتحلت عيني بعينها حتى أخذت كلتاهما تذيع أسرار الفؤاد وما حوى، فتقول عيني لعينها "أنت هي" وتقول عينها لعيني "أنت هو" لكنها لا تقول وتأبى بكل ما أوتيت من قسوة قلبها الرقيق أن تقول، ولا أدري كيف لعينيها أن تبوح بما في قلبها وقد بخل عليَّ لسانها بالبوح؟!

ويخيل إليّ من لهيب حبها أنها نفس تحترق بذاتها كالنجوم تلوح للرائي هادئة لامعة لا صاخبة مشتعلة حتى كادت تذوب وهي تأبى أن تخبرني أحرفًا أراه حية من سحر عينيها ويراها قلبي مختبئة في طيات قلبها القاسي الوردي، وهي: ألف، حاء، باء، كاف، فهلا تبوحين بها؟!

والسر في عينيها كامن مقيم غامض دون تفسير كسر الحب الذي ليس له تفسير غير أنه هو الحب، عالم مليء بالأسرار التي وددت لو أنها تدعني أكتشفها؛ فهل يا ترى سيدتي يلزمني قطع تذكرة كي أسافر عبر عينيك؟! .. وأقرأ في عينيها الألف، الحاء، الباء، والكاف، ولا تود أن تعيرني الكتاب بعضًا من الزمان أي كل الزمان حتى أقرأ المزيد والمزيد ما دامت هي لا تود أن تبوح بحبها، يا لقسوة قلبك على قلبي!! فبربك هلا تبوحين؟!

وانفض المجلس بقولها لو القيت بك مرة ثانية علمني كيف أكون مثلك، وقلت لها إذا القينا المرات الكثيرة القادمة علميني كيف أكون قاسيًا مثلك،

فابتسمت وتركتني بعدها غارق في ابتسامها أحاول عبثًا حصرها في قصيدة أو أهببها قلبي لترى ما فعلت به، تركتني غارقًا وما أشفقت عليّ ولو لمرة واحدة.

وانقطعت رسائلها وكثيرًا ما كانت تنقطع فما استطعت أنا أثبت أمام سيل خواطري التي سالت سيل العرم، ولا سحر قوى قلمي الذي ما ظننت إلا أنه اشتاق إليها قدر شوقي، فكتبت إليها:- ولأن القلب محل الأشواق ومحلك ما اشتقت إليك يومًا؛ فكيف الشوق لخل رحل وهو في القلب باقٍ لم يبرح، لكنه يتوسل الله إلى نظرة منك بمقامك فيه.

وإني والله حينما تكتبين إليّ أكاد أنسى أنك بعيدة عني كل هذا البعد الذي لا منتهى له وكل الحواجز معه، وكأنك تكتبين لقلبي وقلبي حاضر عندك فيأتيني بكلماتك وكأن شعلة أشواقك ملتهبة بها، لكنها ماكرة مثلك تأبى أن تبوح رغم معاني الحب التي تحملها أشعرك تريدين معنى شعورك الخفي بخلق شعور يشبه؛ فتأتيني بمشاعر قلبك على هيئة أفكار في سؤال بقولك "هلا حدثتني عن الشوق؟!" فأخبرك أن يفعل المحب بمحبوبه مثلما تفعلين أنت، أحدهما معذب بالآخر والآخر لا يبالي.

ولحظة لا أمضيها معك لا ألقي لها بالًا ولا أعدها داخل إطار الحياة، فهي لم تكن جزءًا من الزمن بقدر ما هي كل الألم، ولم تكن تعني لي شيئًا في عالم المادة وإنما كانت عذابًا للروح في عالم الروح .. وما أكثر وأقسى عذاب روحي!!

أما إني والله يا حبيبتي حينما أكتب إليك أشعر كأن قلمي كاد يغرق من فيض المشاعر التي تنهال عليه والتي يعجز معها قلبي أن يروض جنوده حتى يخرجها كما هي على صورتها التي صورها الله في قلبي، وأرسلها كما هي علها تأتيني منك بمثلها متمثلة في كلمة واحدة منك؛ فكلمة منك تكفيني: كلمة هي تلك "الألف، الحاء، الباء، والكاف" فهلا تبوحين؟!

والكلمة التي يعزفها المحبوب على مسامع محبه تروح وتجيء ويتردد صداها في داخله مقطعًا موسيقيًا يخلق لدى المتلذذ بسماعه حالة من الهيام تعزله عن العالم بأسره، وتأخذه من كل الأشياء وتسوقه بقواها الخفية لمن يحب؛ فيكون معه عالم لواحد لا واحد لواحد، تأخذه إليه ولا تكاد تأتي به، وترجعه إلى واقعه البعيد كل البعد عن حبيبه.

أتذكرين حينما رددت الوردة بوردة مثلها وما زدت عليها إلا نظرة أحسستها هي الحب ذاته ولا شيء غير مسمى الحب، وكان ذلك في مقتبل الربيع وكدت أقول لك ها هي الأرض قد أينعت لكن لا أدري أذلك لقدوم الربيع أم من آثار قدميك؟! وها هي الورود في الحدائق قد حان قطافها لكن بقيت واحدة في قلبي لا تذبل ولا تُقطف، غير أنني تلهيت بنظرة الحب تلك واكتفيت بسرها وسحر الأول دائم الأثر.

أتعلمين أنني كنت أضعها قرب قلبي وأنا أكتب لك تحت نور القمر وكلما لاح نور القمر بقربي حسبته طيفك يأتني ليأخذك مني .. يا وردتي، وتذكرين حينما سألتني ذات مرة لمَ أنا؟! فأجبتك لأني لا أملك مفتاح التحكم في بوصلة قلبي فانحرفت إليك ولا أعرف كيف أعيدها، فتعالي إليّ وأعيديها لرشدها إن استطعت أو اجعلني أكرهك لو أحببت ذلك، فأنا أعلم يقينًا أنه لا قوى لك على فعل أي منهما لأني تيقنت أنك تحبينني، حينها ابتسمت نفس الابتسامة التي لا زلت إلى الآن غارق فيها .. وفي الختام ولا ختام لقصتنا ألقيت علي قلبك سلامًا كحبي وحبي لو تعلمين عظيم.

ما وراء النظرة

والنظرة في قاموس المحبين خارجة عن الطبيعة غير راجعة إلى مجموع العقل البشري، تأبى الانصياع لفكر كبار الفلاسفة والمفكرين، كالعذراء في خضرها تأبي هتك سترها والنزول عن فضيلتها، فلا يفسرها إلا قانون واحد ألا وهو قانون الحب وذلك بطلب المزيد منها.

ونظرة من قلب أمي تفسرها أنات طواها قلبها بين جناباته على فلذة كبدها المسافر أو الذي أقعده المرض، ونظرة من صغيرها يملؤها العوز إليها، ونظرة متعفف عن الحاجة التي يريدها فتطلبها عينيه حتى لا يريق ماء وجهه بذل سؤال الناس، ونظرة امتنان من صديق لصديقه بقي حينما خذله البقية، ونظرة حب ودفء من الأخت الكبرى تخرج من أمومتها لا من عينيها.

ونظرة لا تفسرها رواية حب وتعجز عن حصر معانيها، ونظرة تتحدث فيها الحبيبة بلغة الحب الثانية فلا يكاد يفهمها أحد إلا من وجهتها له وهو حبيبها ترجمتها «الألف، الحاء، الباء، والكاف» ونظرة معناها «لا أريد سواك أنت .. هو أنت» وأخرى تعني بها «لا أقوى على العيش دونك»، ونظرة تعني أني أغار عليك إذا ما خرجت من إطار عيني إلى الدنيا فتتسلمك عين إحداهن وتدخل إطار قلبها فتحبك في قرارة نفسها سرًا.

ونظرة من الحبيب تعني أني أغار عليك من مس الرياح المرسلة، ومن قلمي حينما يكتب عنك ويروح يسترسل الكلمات في وصفك ووصف معانيك، ونظرة تعني «لا تبتعدي» ونظرة يكاد القلب ينفرط شوقًا لنيل مراده منها وترجمتها «تحدثي» وتلك الأخيرة هي نظرتي إليك.

أما نظرتك أنت أيتها الحبيبة هي تلك التي لا تفسرها رواية حب وترجمتها «الألف، الحاء، الباء، والكاف» فهلا ترجمتها شفتيك فتخرج متعطرة ببعض عطرك،

حاملة أسرارك ومعانيك؟!

إنك لتنظرين إلا أيتها الحبيبة نظرات ساحرة سحرها مستمد من معانيك، وأخرى هادئة هدوء النسمات التي تحملها إليّ أنفاسك في كلمة .. فهلا ترجمتيها؟! ونظرة صاخبة غاضبة تنظرين بها إليّ حينما أضغط عليك بترجمة «الألف، الحاء، الباء، والكاف» وأخرى تأتي بالحياء وهي عندما تسمعين مني نفس «الألف، الحاء، الباء، والكاف» ونظرة ونظرة وكلها لا تأتي ترجمتها إلا من شفتيك أنت .. شفتيك أنت فحسب.

قلب لؤلؤي

يقول جدي وكنت قد سألته مرارًا وتكرارًا أن يقص علي قصة حبه لجدتي وكيف عمل الحب عمله الساحر في قلبيهما حتى سار بهما الحب والرضا إلى هنا وقد جاوزا الستين، يقول:- وضعها الله في قلبي موضعًا ما كان لغيرها يومًا ولن يكون فكان في حبي لها ذلك السر إلهي الذي لا يكون معه تعليل ولا سبب للحب، فأحببتها حبًا لذلك السر وحبًا آخرًا لكونها هي؛ فهي لا تشبههم كانت ولا زالت هادئة لطيفة كنسمات الربيع المبهج على قلب معلول، وأما عن قلبها فهو قلب ندي وردي طيب كقلب الأم الحنون، وفي عينيها دفء يزيل رجفتي، وحب يكفيني وحشة المسير.

لا تعرف مكر ولا خبث البشر فهي بريئة كطفل في عمر الزهور لم يشوبوا بعد كريم أخلاقه بسوء أخلاقهم، ولم يغرسوا فيه بعد أشواك شرورهم، فهو على الحالة التي ولد عليها تقي نقي .. نعم هي بريئة لهذا الحد الذي ليس له حد، بل قد ظلمها قلمي في جمالها وصفًا، وخانني في حبها تعبيرًا.

تهون علي مرارة الوحدة، وتلازمني كظلي، قريبة كأنفاسي، وتسد مسد الذين خذلوني ورحلوا، فصارت هي أوفى صديق وأصدق رفيق، وأفرغ فيها كل شحناتي فلا تتأفأف، هي إلى جانبي في حزني وفرحي فلا ترحل، أحدثها فلا تمل، وأغيب عنها فتنتظر، ويكفيني منها أنها أنيسي في وحدتي.

كالندى الرقراق يسقط على أزهار الربيع في مقتبل الصباح؛ فيهدهده ويداعبه ويرويه حبًا وحنانًا من فيض حبه وحنانه، هكذا أثر قلبها الندي على القلب الوردي، لا تتحدث إلا بما تشعر به، ولا تشعر إلا بما فيه بينه وبين قلبها تعاقد، تمضي الأيام وتتبدل الأحوال وهي لا تزال الصورة الأصيلة من هذا الزمان الذي يتلون.

كل شيءٍ كما كان في السابق، على ما هو عليه، على هيئته الأولى تمامًا، هيئته التي فُطر عليها؛ فقلبها كان لها كل شيء، أما كل أشياء العالم دونه

قد تباينت بطريقة مخيفة، لدرجة تؤكد أنه لن يصلح للعيش وسط كل هذا التباين، فإما تنافر يحيله لانطوائية وإنما انخراط يحيله للوحشية، فلكم وددت أن أجعل قلبي لقلبها مسكنًا!!

ولا يراها قلبي إلا وكأن النقاء في الجنس البشري مقتصر عليها وحدها، فما عدت أراه إلا في تلك الزهور الغضة، وقلبها ذاك اللؤلؤي الجوهري، والله الله على تلك الجنة التي تأخذني إليها حينما ترتسم البسمة على شفتيها!!

وتنبثق المعاني من وجهها كما تنبثق أنوار الفجر بعد ليل طويل، كأن فيها إنسانية نسائية فريدة، لها من أسرار جمال الروح ما ليس لغيرها ولا لأحد سواها، وقلبها لصفائه والنور الذي بعثه الله فيه كأنه مادة حية من النجوم لا ينطفئ ولا يحق لأحد أن يطفئه وجرمه جرم عظيم من يفعل.

رقيقة هي، تخشى أن يمسني طائف من حزن فتحزن أضعاف أضعاف حزني، تتودد إليّ في تحركاتها وسكناتها فهي لم تخذلني يومًا، بل كانت أحن يد طبطبت على أوجاعي، وأرجى دواء عالج آلامي، تجود ولا تمن، تعطى ولا تنتظر أجرًا، قمة هي في العطاء والبذل، لذا واجب على المحب أن يبذل حاضره ومستقبله في سبيل إسعاد حبيبه، وهذا أقل ما يجازيه به، وأرجو الله كما جمعنا في الدنيا أن يجمعنا في عالين، فلا شيء أحب إلى نفسي من أن أراها رفيقتي في الجنة، وأن تكون أنقى حور عينها معي .. لكل هذا وأكثر أحبها، أحبها لذلك السر إلهي ولأنها هي.

على شاطيء الإسكندرية

جلست يومًا على شاطيء البحر حيث الحياة تلقي بمعانيها فيه؛ فما يوحيه إليك وما ينقله لك من أسراره كأن أمواجه بعض صفحات الحياة منشورة عليه حتى تكاد تتحدث أحاديثًا لا يفهمها إلا المتأمل خلق الله ومن أودع الله في نفسه بعضًا من أسرار الطبيعة وكنزًا عظيمًا من بعض كنوز السماء.

وهناك حيث النسيم الهادئ على شاطيء الإسكندرية وقد أوشكت الشمس أن تنحدر نحو الغرب لتنشر أشعتها من جديد على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، يجلس هذا الزوج وزوجته على الجانب الآخر من العالم؛ للناس واديهم وهم في وادٍ غير واديهم، يخلقان بحبهما ورضا كل منهما بكله عالمًا آخرًا.

وأوحى لي منظرهما وهما يتأملان بعضهما والبحر وأنا نتأملهما أن أكمل أحاديثي حول الحب وكنت قد هممت ليلة البارحة قبل أن أذهب في النوم أن أكتب كتابي هذا "على شاطيء الإسكندرية" غير أنني من وحي الخيال كنت سأكتبه، ويشاء الله أن أجالس البحر ومذكرتي والقلم معي كالعادة فأكمل ما هممت بكتابته وقد أتيحت لي تلك الفرصة العظيمة.

وأوحى لي صمتهما طيلة جلستهما أسرارًا أخرى من أسرار الحب، وكيفية تفرد حبهما وتميز فهم بعضهما البعض حتى دون أن يتحدثا؛ وكيف كان كل منها للأخر هو الشيء وكل شيء؛ فهو لا يرى غيرها ولا يراها في أحد وهي لا ترى غيره ولا تراه في أحد؛ فهي في عينه القمر وإن لم تكن الأجمل، وهو لها الآخر والأول.

ومع هذا الحب الذى لا يفتر وهذا الشيب الذى أصاب شعرهما وعجز أن يصيب قلبهما يجلسان فيتجاذبان أطراف الحديث ليس بحديث اللسان وإنما حديثُ القلب، حديث العين، ذاك القلب الذى يتمتم بكلمات مفتاح ترجمتها قاصر عليهما، وتلك العين التي تشع إشارات حب لا تصل إلا لقلب المحب.

وكأني بهما عصفوران على غصن شجرة لسان حالهما زقزقة حبهما، لا يكترثان بما حولهما من جمال؛ فكل الجمال يكمن لدى أحدهما في نصفه الأخر، يأنسان بالقليل ولا يريان إلا الجميل؛ فلا يرى أحدهما الجمال إلا في أنيسه فلا يرويه إلا حبها ولا يهدئ روعه إلا حضنها، وهى ترى منه القليل كثيرًا وتراه ملكًا وما هو إلا بشر؛ فهو بها مفتون وهو لها العشق، ولم يجمعهما الحب وإنما جمعهما القدر وتفننا في صنع الحب بينهما صنعًا، وهنا يكمن سر سعادتهما وروعة حبهما مبدع الخلق.

ثم همس في أذنيها لبرهة وحدثتني نفسي أنه يقول لها:- ولم أر في الوجود شيئًا يزداد جمالًا إلاك أنت، فهل سر الجمال كامن فيك أنت، أم أن الجمال هو معناك أنت؟! يمضي الزمان ويأخذ كل الخلائق معه في رحلته فيشيخون ويهرمون لكني أراه ينساك أنت؛ يزيد العمر بك ولكنه لا يأخذ منك ولا يضيف إليك إلا مفاتن نساء العالمين فأراك أنت كلهن، وكلهن أنت وكلهن لا شيء بجوارك أنت.

وكأنك جنية أو حورية من الحور العين هبطت الأرض تاركةً نعيم الجنة لتسكن بيتي فتجعله روضة كتلك الروضة التي هربت منها، أو كأنك أداة الوقت منزوعة الزمان فتتحرك فيها عقاربها دون أن تزيد على سنك شيئًا، ودون أن تنقص من جمالك شيئًا.

وفي عينيك النور ينبثق من الفجر الذي يختبئ في معانيك لينادينى إليه؛ فينادينى إليك فلا يبرح ينادينى حتى يسلبني من دنياي إلى عينيك فأسكنها لأفسرها فأغرق من غموض أسرارها في معانيك؛ فأغرق منها وهنًا وضعفًا أعني أغرق فيها حبًا وتفسيرًا.

ومن بين معانيك معاني البراءة والطفولة التي تستر وراء نضجك وفلسفتك العليا الغامضة التي تهبينها بعدًا ثالثًا من التفكير والتحليل، وتهبك هي غموضًا وجمالًا من نوع آخر على غير طريقة الجمال الذي نألفه ونعرفه،

وفي عينيك سعادتي التي أبحث عنها، وفي قلبك ذاك الحضن الذي أتمناه، وفي عينيك يا حبيبتي تتجلى «أنت»

أذكر أول مرة حينما التقينا على شاطيء بحرنا هذا فتوقف الزمان عند تلك اللحظة التي التقت فيها عيني بعينك كأنه يود أن يعلم ختم قصتنا التي بدأت بهمس دعوة في القيام ثم لقاء ونظرة فسكن، وحدثتني عينيك حينها أحاديثًا غامضةً ما فهمت منها شيئًا، حائرةً صاخبة تكاد من فرط حدتها وعنفوانها تسمع.

كانت نظرتك لي نظرة لغز غامض حول سر أكثر غموضًا منه ألا وهو سر الحب، تتساءلين «أهو أنت الحب أم أنني أجهلك وأتوهمه؟! أهو أنت الذي يتفهم طبيعة غامضة فيّ لا تكاد تفهم، ويخرج من بين غيابات أسراري جواهر باتت في عالمنا تهمل ولا تقدر؟! أهو أنت الوطن والمسكن؟! أهو أنت أنا أم أنني لا زلت أتوهم؟! ومع كل تساؤل من عينيك كانت عيني تخبرك أنه «هو أنا»

كنت تشفقين على قلبك منه، تخافين وهمه وغدره، يتوجس قلبك من الوقوع في محظور بدفاع خبيث بهتانًا وزورًا باسم الحب، وابتدأت القصة بدعوة مني ولا زلت أدعو، وبدأ حبي لك بغموض منك وهو لا زال فيك رغم أنه لا أحد يعرفك مثلي؛ ولأنني أنا الذي يعرفك جيدًا أدرك أن غموضك هذا سيظل لا يفهم ولا يعرف، سرًا أوقعك في قلبي موقعك ذاك .. بدأ حبي وأنا لا زلت في بدايته أنهل منه وأغترف.

والحب لا يبقى حبًا أبدًا إما أن يسمو ويربو بلا حد حتى وإن فرقته الأقدار بغير قناعة منه ولا رضا، وإما أن ينقلب عداوة ضارية يستحيل معها أن ينبت بالقلب حب آخر؛ فيحترق من شدة لهيبه وعظمة إحراقه، عجيب سر الحب هذا عجب غموضك ذاك الذي يسافر طويلًا وأنا أفسره وهو يأبى أن يفسر لكن يكفيني أنني مسافر فيك ولا زالت مسافرًا ولا أود أن أنقطع.

وآه ليت شعري كيف يكون الحب بحراً بلا شطآن، ينحدر ماؤه من المحيط منسابًا، وكأن المحيط يفضي إليه بسريرته، ويودعه أسرار الحياة ومعانيها التي أودعها الله في روح كل منهما، تنجرف ماؤه وما تلبث تنجرف حتى تطغى الأمواج عليه فتهيج وتضطرب، ثم تعود تهدأ بقرب من نحب.

مستني رحمته

يقول:- كنت قد حدت عن الطريق المستقيم ولججت في المعاصي والظلمات وكنت كلما ابتعدت عن الطريق أكثر ضاقت أنفاسي كمن يصعد في السماء، ورأيت الضنك والضيق يطوق رقبتي حتى كاد يخنقني.

وبينما كنت عائدًا للبيت غارقًا في سكري كالعادة قبيل الفجر سمعت المؤذن ينادي «الله أكبر الله أكبر» وكان قد مضى زمنًا وأنا ما ركعتها، سمعتها وكأني للمرة الأولى أسمعها، صداها يتردد على مسامعي حتى الآن؛ فما استطعت على السير ووقفت جاثمًا مكاني، توقف خطوي وتسارع نبض قلبي ونزل عليه النداء يهز جنباته لكأنه المطر يسقط على أرض بور فيحيلها جنة خضراء، ومن قبل أحسسته قد مات لكثرة ذنوبي التي جنيتها وجنت عليه.

ويشاء الله أن تنفخ فيه الروح من الجديد، توقفت وإذ بأقدامي تسوقني نحو المسجد فدخلت والله الله على شعور آنذاك!! وكأنني ما دخلت بيت من بيوت الله بل جنة ممن جنانه تتلقاني فيها الرحمات وتتغلغل في كل ذرة مني فتغسلها من دثها وتطهرها وتبث فيها روح الحياة من جديد.

وبعدما صليت وكأنني وللمرة الأولى أصلي، ولا زلت أذكر دموعي التي انهرت على سجادتي وبكائي الذي كان يسمع له أزيزًا كأزيز المرجل والذي لفت انتباه المصلين لي، لا زلت أذكر أول قدم خطوت بها وأول مرة استشعرت فيها نظرة الله لي نظرة حب ورحمة ورضا.

لا زلت أذكر اسم المسجد واسم إمامه الذي غمس قلبي في نهر الحياة لعذوبة صوته، يقرأ القرآن خاشعًا باكيًا متضرعًا وكأنه على قلبه أنزل، وبعدما انتهينا أخذ يشد على يدي ويهدأ من روعي ويحاكيني عن رحمته بعباده -سبحانه-،

وأخذ يفسر لي في سنفونية رائعة قوله جل وعلا {أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وكأنه يعرفني وأنا ولا مرة رأيته ينادي يا "رفيق الدرب" مربتًا بها على قلبه وكأنني واحد منهم وهم العابدون الربانيون وأنا العاصي والمذنب بينهم.

يقول فيها:-المتأمل -يا رفيق الدرب- في لطف هذه الآية من آياته -جل شأنه- ما تلبث دموعه أن تنجرف سيلًا عارمًا خجلًا من غاية رحمته وعظم لطفه -سبحانه- ورغم كل هذا لا زال الإنسان بحماقته ينأى ويُعرض عن هذه النعمة -مُغفلٌ هو- يرفسها بأقدامه مُكبلًا بالذنوب والآثام تُهدَى إليه الرحمة والمغفرة دون كلفٍ منه ولا تعبٍ وما يهتدي.

وهذه الآية دون أخواتها من آيات رحماته -جل شأنه- لها في قلبي مكانةٌ خاصةٌ، وكثيرًا ما تأخذ بمجامع قلبي نحو الله في مشهدٍ من الرأفة والرحمة والتودد ينجرف فيه القلب في شيءٍ من لطف الترحيب أروع ما يكون، يجتذبني بنشوة الضيف المرحب به في ربوع جنة مضيافه، يتربع في رُبى رحماته، وقد أغدق عليه بما ترنو إليه نفسه ويتوق إليه فؤاده.

وكثيرًا ما يأخذني عظم الأسلوب ورقته في مخاطبة عباده والتودد إليهم -وهو الغنيُّ عنهم- لأنْ أُقرَّ بأنَّ الحكمة والرحمة والكمال كل الكمال لله وحده، يعرض عليهم صفقةً وحدهم هم الرابحون فيها بل وإنه يحثهم على التوبة بأسلوبٍ يقتحم القلب برقته لا بقسوته فيلين للنداء مُلبيًا إلا من أسلم للشيطان وشهوات نفسه الراية وراح يلج في ظلمات المعاصي لا يهتدي إلا الحق ولا إلى النور سبيلًا.

فانظر إلى قوله -سبحانه- "أَلَا" لفظةٌ في اللغة للحث والتحضيض وهي في ذاتها جذبٌ لمسامع قلب المؤمن واستلاب لخوفه وقلقه المتوغل فيه من ألا يغفر له،

بل وقوله -جل وعلى- "تُحِبُّونَ" أسلوب عرض فائق الربح للمعروض عليه وكأن الإنسان لقلة معرفته وصغر منظوره هو الذي يبتعد كل البعد عن ذلك المعروض وتلك المغفرة بل هو بالفعل كذلك كما ذكرتُ آنفًا، وبعدها يأتي مطلب كل قلبٍ حيٍّ يرجو المغفرة "أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ" وقد كان من أسلوب العرض ما هو كفيل أن يُسلم العبد لله قلبه خاضعًا مقرًا بذنوبه يرجو رحمته ويخشى عذابه، وأخيرًا قوله -سبحانه- "وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" إذ يُقر ويختتم آيةً من آيات رحماته -جل شأنه- التي وسعت كل شيءٍ والتي هي في جل معانيها لا تنتهي ولا تُختتَم.

وأخذ يوصيني قائلًا:- والذنب -يا صاحبي- يتاب منه ولا تسترجع أحادثه ما دمت تجاهد ألا ترجع وألا تجد له لذة وما دمت لا تجد معه تلك الغصة عند تذكرك إياه حينها وجب عليك نسيانه وقطع رحمك به، وثق بالله أنه لن يعود إلا مغفورًا وقد تبدلت سيئاتك حسنات، واعلم أن العمر بقدرِ ما حييت وأن الحياة بقدرِ اللذة التي ذقتها فيها، واللذة بقدرِ قربك منه -سبحانه- فارحل إليه مشتاقًا تعد أكثر اشتياقًا فيصير الاشتياق شوقًا وتزداد بزيادة الشوق لذة القرب.

ويا صديقي ما دمت قد ذقت لذة الطاعة فإياك ثم إياك أن تلتفت لهوى النفس؛ فيهوي بك ريح غيها في مكان سحيق، واستعن بالله على نفسك ودنياك حتى تفوز بأخراك، واعلم أنه على قدر مشقة المجاهدة، يكون الفرح بأن لك قلب حي يسعده الرجوع إلى الله ويعكر صفوه البعد عنه، يرتجف من غضب الله ويعتصر حزنًا وندمًا على ما قدم، ويسعده رضا الله إذ إنه لا يرجو سواه، قلب إذا ذُكِّر تذكر .. فقط لا عليك إلا أن تلزم المجاهدة ولا تبرح حتى تلقاه.

وبعدها عدت إلى داري وما عدت لذنوبي قط، وقطعت صلتي بكل أصحاب السوء الذين عرفتهم وصدقت وصدق الله معي وعده بأن نجاني

ومنَّ عليَّ بأن قربني منه وآنس وحشتي به -سبحانه- وصار هذا المسجد هو أحب بيوت الله إلى قلبي وصار ذاك الشيخ الإمام هو أقرب خلق الله إليَّ وهكذا مستني رحمته وصارت إنسانًا آخر.

حوار مع صديقي التائب

مرحبًا يا صديقي، ها قد عدت من جديد.

= وأين كنت؟

كنت أرمم نفسي.

= ومن أي شيء ترممها؟

من الحروب التي أهلكتها.

= وأي الحروب أهلكتك؟

حروبي مع نفسي.

= كيف؟!

حاربت كي أعود إلى الطريق الذي حدت عنه.

= وعدت؟

نعم عدت.

= وكيف وجدت طريقك؟

في خجلي منه.

= كيف؟!

كيف أعصيه وهو يراني ويمهلني ويسوق لي العلامات دبأن عد فالطريق هلاك والنفس في المعاصي تحتضر، والقلب في البعد يعتصر، عد فهذا ليس طريقك وأنت تعلم ذلك وتعيه جيدًا.

= وماذا بعد؟

أحببته.

= الطريق؟

لا، فالطريق حتمًا أحبه.

= إذًا ماذا تقصد؟

الله.

= هل جننت، وكيف لا تحبه؟!

نعم جننت بعلاقتي التي لا أعرف لها تشخيصًا ولا وصفًا إذ إنها لعظم أمرها في قلبي لا توصف، ولها لذة يذوقها القلب ولا يجهلها اللسان، ولا أخفيك سرًا أني أمضيت معظم العشرين من عمري وأنا أخشى أن أقول أني أحبه ولا يكون الأمر في قلبي كذلك وأن تكذبني جوارحي وأفعالي، وفي أواخر العشرين من عمري اعترفت له -وهو أعلم مني- قولًا وعملًا بل فعل قلبي قبل لساني أني أحبه.

= ولِمَ كل هذا؟

لأني أحبه، وهو رغم كل شيء يحبني.

= ومن قال أنه يحبك؟

هو.

= ماذا؟!

دائما ما يبتليني وينقذني ويقربني إليه.

= وهل ترى هذا دليل؟

إن إنقاذه لي ورحمته بي أعظم دليل، وقلبي دليلي فلا يكذبني، وهو القائل جل في علاه " والله يحب التوابين ويحب المتطهرين "

= وكيف تبت؟

بغصة في حلقي وكأن حبالًا عظيمة شدت عليه لاعتصار قلبي وهطول دمعي الذي سال سيل العرم على سجادتي وأنا أناجيه.

= وماذا بعد توبتك؟

ألقاه كل ليلة وقت السحر أستغفره وأثني عليه وأحادثه بتفاصيل يومي لأعوض روحي عن الأيام الخالية التي عذبتها فيها وأنا بعيد، وأرجوه -سبحانه- أن يديم لقاءي به فهذا أسمى ما أرنو إليه؛ إذ إن قلبي لا يدرك معنى السعادة حق الإدراك إلا في تلك السويعات القليلة وكأنها بعد ذلك تمتد لتشمل جل لحظاتي وأيامي.

وأنت يا صديقي ماذا تنتظر ما دمت تحبه؟!

= الطريق شاق، ونفسي قصير هزيل.

في بدايته مشقة، وأوسطه لذة، وأخره جزاء .. وأنفاسك بالله تقوى، فقط ضع محبته نصب عينيك واصطبر.

قالها وربت على كتفي برفق ثم مضى، وكأنه يعطني فرصة حتى تستنشق روحي كلماته فتتغذى كل ذرة فيّ بلطفها، وتجدد فيَّ الإيمان الذي وارته ذنوبي وشهوات نفسي.

سكنت روحي هنيهة لكن ما نويت التوبة بعد، ورحت أتم عملي لا صلاة ولا حياة بل أشعر كل ليلة بعدما يسكن الليل ويشعل الهموم والأفكار في عقلي الذي ضل مسعاه، أشعر بثقل شديد وكأن الكون كله جاثم على أنفاسي حتى أكاد أختنق.

وفي نفس ذات اليوم وبعدما وليَّ النهار ليسلمني الليل لوحوشه الضارية بعث إليَّ برسالته تلك التي هونت عليَّ المشقة التي ألقاها وأنا أقترب، وقتلت شيطاني ونويت بعدها التوبة وخطوت أول خطواتي نحو الطريق الذي خلقنا كي نعبره.

وكان مضمون رسالته:-

أي صديقي، إني محدثك في الله حديثًا إن أنت أقمته كانت لك سعادة الدنيا والآخرة، وإن وليت مدبرًا عنه فقد خبت وخسئت؛ فاختر طريقك كيفما شئت ولكن كن على يقين أن كل الطرقات يومًا ما ستضيق بك إلا طريق الله فلن تسعك إلا رحمته، ومتى شق الأمر على قلبك واشتكى من الذنوب ثقلًا، اهرع إليه واحتمي بين يديه وابكي، وابكي على انكسارك الذي لن يجبره إلا هو، ابكي على ندوبات روحك وما أفسدوه في قلبك؛ فلن يرممك إلا هو.

اجهش في بكائك وقل له عاصٍ أتاك على وجل وكله رجاءٌ فيك، مذنبٌ يطمع من الغفار مغفرةً تمحو ذنوبه، مقصرٌ يرجو من الجبار رحمةً تجبر تقصيره، مشتاقٌ جاءك يشكو عتمة الطرقات دونك، فاهديه كيفما شئت إلى طريق رضوانك سبيلًا.

وبعدما تغسل قلبك بدموع الندم، ستزول تلك الغصة التي تنغص عليك عيشك وسينجلي ذلك الغمام الذي خيم على فؤادك وستتبدل ظلمات غيك أنوارًا تشرق بها حياتك وبعدها ثق بربك أنه لن يردك إلا وقد غفر لك، وتجاوز عن سيئاتك وداوى جروح قلبك وردك محلقًا في سماء عنايته تجوب سعادة قربك الأكوان.

شعرت بعدها بارتياح شديد ما عهدته منذ أن لججت في الظلمات، والتقيت في الصباح والسكينة قد شملتني والبسمة حازت من محياي حوزتها تنم عن مولدي الجديد وكأنني وللمرة الأولى أبتسم، وكأنني وللمرة الأولى ألتقي به، كل شيء كان جميلًا في عيني وكأنه أول عهدي بالوجود والحياة.

ما عرفت كيف أبتدء الحديث وفجأةً وجدتني بين أحضانه باكيًا وما وجدت شيئًا يعبر عن حبي إلا قولي "دمت لي رفيقي نحو الجنان" ولا وجدت شيئًا يعبر عن امتناني إلا أن أسأل الله أن يجازيه عني خير الجزاء، وأن يحسن ما بين يديه ويسدد خطاه فيما ينوي.

= تعلم ماذا يا صديقي .. ليس لنا إلا الله لنحتمي فيه في خوفنا ونتقوى به في ضعفنا ونهتدي به إذا ضللنا السبيل، نذهب إليه مكسوري الجناح ونعود ملحقين مرفرفين وكأنه لم يصبنا الضعف يومًا، ولقد خدعت نفسي حينما توهمت سعادة غير سعادة القرب منه ورجوت حصنًا غير حصنه المنيع والتمست لدائي دواء غير دواء القرب منه -سبحانه-.

فوحده الله يجبر خواطرنا المكسورة، ويعلم أننا نجاهد بعناء لأجله هو فقط، ووحده يعلم أننا تركنا ما أحببنا فقط لأجل إرضائه، وحده يعلم أن هذا الترك لم يكن بالهين علي قلوبنا، وحده الله يعلم كل تفاصيل أحزاننا ومدى وجع أرواحنا وهشاشة قلوبنا.

الله وحده هو الذي يكبح شهوات أنفسنا ويعصمنا من الفتن، وحده الله يصقل قلوبنا ويعيد نقاءها، وهو وحده الذي يغفر زلاتنا ويتجاوز عن أخطائنا ويعوضنا خيرًا عن مجاهدتنا وصبرنا، وحده الله يعلم كل تفاصيل الحكاية.

صدقت يا صديقي .. والحمد لله أنه هو الرب والإله، الحمد لله أنه -سبحانه- هو الله .. ومرحبًا بعودتك من جديد لأوطانك، وأرجوه -جل وعلا- ألا يأذن لنا بلقائه إلا ونحن على طاعته، وأرجوه كذلك أن يكون زادنا من الدنيا يرضيه

الرسالة

ولم تنته الحكاية بعد وإنما هي فكرة تورث فكرة ورسالة تسلم رسالة، والطريق إلى الله طريق دعوة إليه ونشر للرسالة وما بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه لأمة بعينها وإنما كانت رسالته عامة تشمل كل الخلائق أجمعين، وكانت الدعوة منهاجًا سار عليه التابعين وتابعيهم حتى وصلت هذا الجيل وإن قل التابعين وكثر المنحرفين فالرسالة لا بد لها أن تصل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي الأمة الكثيرين ممن فيهم الصلاح لكن تعتري قلوبهم غشاوة تحتاج لمن يزيلها، ومنهم من يتعرج في سيره ويحتاج إلى من يسنده ويسانده، ومنه النسي الذي يحتاج فقط إلى من يذكره فيتذكر، وهذا دور الغني بمعرفته -سبحانه- على الفقير، ودور العلماء والمصلحين، دور كل مسلم أن يؤدي رسالته في الإسلام ويبلغ عن الرسول ولو كلمة.

وما أرسلنا الله قضاة بل دعاة، ندعو ولا نبالي بالعواقب، فالأمر كله لله والقلوب بين اصبعين من أصابعه -جل وعلا- يقلبها كيف يشاء يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ونوح ظل يدعو في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وما آمن معه إلا قليل، فلله در صبره، وفهمه لمقصود التبليغ والدعوة!! بلغ وما عليه.

وأنا في هذه الحياة لست وحدي حتى أحمل عدتي وأمضي، وقد كان لي صديق قديم قبل أن يهديني الله إلى طريق الحق المبين، وما وددت أن أدعه في غيه دون مرشد ولا رفيق، ولا وددت أن أمضي دونه فالمحب كل همه سعادة من يحب، والحب أعظم الحب أن تأخذ بيد من أحببت نحو خالقه، وأن تكون سراجًا ينير دربه، وكتفًا يتكأ عليه ويحميه وعرة الطريق.

فبعثت إليه أكثر من مرة أحثه وأدعوه إلى الله وأمهد له طريق العودة،

وظني في الله أنه لن يفلته من يدي، وأنه سبحانه سيجعلني اليد التي تنتشله من الظلمات، وترشده نحو النور، وتجدد في قلبه الإيمان وقد حدث بعد رسالتي الأخيرة هذه، بعد ما يقارب أربعة أشهر من محاولاتي معه، وبعدها أنار الله قلبه ويسره للهدى فهداه وتاب عليه.

ومضمون رسالتي:-

أي صديقي، أمضيتُ زمنًا طويلًا وأنا أحاول جاهدًا أن أصف لك تلك اللذة التي تكمن في القرب من الله والحياة معه، وما أدركت إلا كما تدرك السمكة برشفتها من البحر المحيط؛ لأنها -وربي- لذة تُعاش ولا يدركها اللسان وصفًا بل يدركها القلب حياةً وسعادةً واطمئنانًا، لذة يعجز عن وصفها أبلغ الأدباء وأعظم الشعراء؛ فكيف لحروف اللغة أن تحيط ببحور ذلك الشعور؟!

ففي الحياة مع الله حياة للقلب وراحة للبدن وطمأنينة للروح؛ فاهرع إليه -يا صديقي- وسله ألا يحرمك قربه، سله أن تظل مقيمًا في هذه الحياة وأنت في كنفه وحصنه لا تبرحه أبدًا ما حييت، سله أن يجعل قلبك عالقًا بروحه جل شأنه لدرجة أنك تموت لو أنك ضللت الطريق، فلا تطيق عنه بعدًا، وسرعان ما ترد إليك روحك بعودتك تلك.

سله أن يجعل غايتك العظمى رضاه حتى لا تمضي عمرك تجمع في حصى المُنى فما تزيد قلبك إلا قسوةً، وما يفنى عمرك إلا هباءً؛ فما أعظم مُنى المرء إن كانت وجه الله وما أشقاه إن كانت إلى ما سواه تنحدرُ، فهي غاية لا تعادلها غاية، ورضا الله فوز لا يعادله فوز.

انطرح بين يديه في دجى الليل الطويل وسله عفوًا تتجاوز به جميع زلاتك وهفواتك، فإنه إذا عفا رضى ورحم، وما عفوه ذاك -يا صديقي- إلا من رحمته التي وسعت كل شيء .. سله أن يجبر كسرك جبرًا يرمم ندوبات روحك المجهدة، ويقوي جسدك المتهالك الواهي من عثرات الطريق.

سله سبحانه أن يحبك حبًا يملأ عليك الجنان، ويعوضك ذاك الجفاء الذريع الذي اقتحموا سلوة قلبك به، سله أن يحبك بلا حد؛ لأنه إذا أحبك أدهشك بجميل عطاياه، وجعل لك في قلوب عباده منزلة تسمو بها في أعينهم، وكان لك في الدنيا عونًا ومعينًا وناصرًا ونصيرًا، وفي الأخرة تُقر عينيك بالنظر لوجهه الكريم وترتقى بحبه في جنات نعيم.

وفي الختام يا صاحبي تذكر أني ها هنا قربك يدي في يدك، وقلبي على قلبك، وسنخطو خطواتنا نحو الجنان سويًا؛ فالطريق مليء بالشهوات والمغريات والعثرات يحتاج إلى رفيق يشد بالود أزرك، ويُعلي بالصدق همتك، ومهما زللت عاود النهوض، ومهما انتكست لا تمل الرجوع إليه وطلب العفو منه والتذلل بين يديه، مهما أذنبت لا تنس أن لك ربًا أنين المستغفرين أحب إليه من فجع المسبحين.

وهكذا صار الواحد ثلاثة وتصير الثلاثة تسعة وتستمر الرسالة ويستمر التبليغ ولا يقتصر على فئة بعينها أو مكان بعينه فالمعلم له دوره وكذلك الأب والأم من قبل، الطبيب والكاتب، إمام المسجد وعامليه، الكبير يبلغ الصغير، والصغير يعين من هو أصغر منه، رسالة يتسلمها جيل عن جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والآن لتعلم -عزيزي القارئ- أن هذا العمل مماثل تماماً لفكري المتطور بين اليوم والليلة؛ لأنك إذا تمعنت الأسلوب وجدت فيه الكثير من التباين فهو ما كتب في ليلة واحدة .. فلا تتعجب.

وإلى أن ألقاك بإذن الله في عمل آخر حول فكرة أخرى أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

تم بحمد لله.

كم لديك من السطور الجميلة التى اخذت
منك الكثير من المجهود و الاعتناء
لكى تكون افضل ما يمكن
لكى تعبر بها عن شعور داخلى
لم تستطيع ان تشاركه مع احد غيرك
مهما كانت سطورك
قصص .. روايات .. اشعار .. مقالات
باللغة
العربية او الإنجليزية او الفرنسية

تواصل معنا لتشارك سطورك مع العالم